التورانيون والايرانيون

للدكتور طه ندا

يعترف العلماء الذين تفرغوا لدراسة تاريخ الترك بصعوبة هذه الدراسة ومرد ذلك إلى أسباب كثيرة يذكرونها ، منها كثرة القبائل والفروع التى يتفرع اليها هذا الشعب ، واتساع مساحة الأرض التى شغلها من أقصى الشرق الى أقصى الغرب . وتعدد اللهجات التى يتكلمون بها تبعاً لتعدد المناطق والأقاليم التى يعيشون فيها . واختلاط هذا الشعب بكثير من الشعوب الأخرى التى خالطها أو عاش معها حاكماً أو محكوماً كالصين والفرس والعرب والهنود وغيرهم .

وقد ترتب على هذا الاختلاط بين الشعب التركى وغيره من الشعوب اختلاط الدماء ، وتداخل التواريخ ، وامتزاج اللغات والثقافات مما يوسع دائرة البحث على الباحث ويجعله فى حاجة إلى كثير من أدوات البحث المختلفة التى لا تلزم فى العادة لغيره من الباحثين فى الموضوعات الأخرى .

والمتصدى لتاريخ الترك أو أدبهم يجد صعوبة كبرى فى هذه الدراسة لأنه محتاج إلى اجادة اللغة التركية . وحتى هذه اللغة نفسها تتفرع كما أشرنا إلى لهجات مختلفة تعقد الأمر أمام الباحث وتجعله فى حاجة إلى مساعدة مجموعة من العلماء بهذه اللهجات المختلفة . ثم هو فى حاجة إلى إجادة عدد آخر من اللغات ارتبطت بالتركية ارتباطاً وثيقاً وأثرت فيها وأهمها اللغة العربية واللغة الفارسية وما يتصل بهذه اللغات من تاريخ وحضارة وثقافة .

وقد يبدو أن إجادة لغة شعب من الشعوب تكفى لدراسة تاريخه ، ولكن هذا لا ينطبق على دراسة الشعوب التركية . فاللغة الصينية مثلا مهمة فى معرفة تاريخ الأتراك الذين عاشوا فى أقصى الشرق فى الصين ومنغوليا

وفى معرفة أخبارهم التى وردت فى المصادر الصينية . أما الذين اتجهوا إلى الغرب وخالطوا الفرس والعرب وتأثروا بالحضارة الإسلامية فالاعتماد على الفارسية والعربية أمر أساسى لمعرفة تاريخهم . ويلاحظ أن مصادر تاريخ الترك كانت تكتب حتى أزمنة متأخرة باللغة الفارسية . وعندما أخذ الترك يهتمون بلغتهم ويتخذونها لغة كتابة وتأليف لم ينقطع تيار الفارسية وظلت تشارك التركية .

ويشير بارتولد إلى هذه الصعوبات فيقول إنه ليس هناك بين الدول التركية ما يستمد تاريخه من مصادر تركية سوى الدولة العثمانية . وحتى هذه المصادر التى كتبت بالتركية تجبر الباحث على إجادة العربية والفارسية لأن اللغة التركية خليط من هذه اللغات . وكثير من الأتراك يصعب عليهم فهمها لهذا السبب (١) .

وهناك صعوبة أخرى تتمثل فى أن المصادر الخاصة بتاريخ الترك قد كتبت فى عصور متأخرة مما يعرض المعلومات الواردة فيها للشك فى صحتها نظراً لفروق الزمنية الواسعة بين تاريخ الوقائع الواردة فى هذه المصادر وبين تاريخ تأليف هذه المصادر نفسها .

وإذا أضفت إلى هذا قلة المصادر القديمة والوثائق تبين لك أن الأمر تكتنفه الصعوبات من كل جانب .

وأقدم الآثار الخاصة باللغة التركية تلك النقوش التى اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على ضفاف نهر أرخون فى منغوليا وتعرف بين الباحثين بآثار اورخون . وهذه النقوش تشمل فترة ضئيلة من تاريخ الترك تبلغ نصف قرن فقط من سنة ٦٣٠ – ٦٨٠ م :

وتشير هذه النقوش فى تلك الحقبة إلى تاريخ أتراك الشرق عندما كانوا

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ترجمة أحمد السعيد سليمان ص ٢

خاضعين للصين . ورغم اكتشاف هذه النقوش منذ مدة إلا أنها لا تزال موضع البحث والدراسة . ومازالت ترجمتها موضع خلاف بين العلماء لصعوبة النص الأصلي الذى كتبت به تلك النقوش . ويقدم لنا بارتولد مثلا من أمثلة الخلاف بين العلماء فى ترجمة هذه النقوش كلمة مثل كلمة «تورك» التى اختلفوا فيها اختلافاً واسعاً أهى اسم قبيلة أو أسرة حاكمة أو معناها القوة أو العزم أو الجماعة المتحدة .. الخ . (١) وكل هذا الخلاف قائم حول معنى كلمة واحدة فكيف يكون الخلاف بالنسبة لمجموعة النقوش كلها .

ويرى بارتولد أن الشعب التركى وإن كان موجوداً منذ أقدم العصور الا أن كلمة تورك لم تستعمل فى رأيه للدلالة على هذا الشعب قبل القرن السادس ويرجح ان تكون هذه اللفظة «تورك» اصطلاحاً إسلامياً (٢) .

وبناء على مايراه بارتولد لامانع لدينا فى أن نخص بهذه اللفظة (تورك) الأتراك الذين عاشوا فى العصور الإسلامية . أما الذين عاشوا قبل ذلك أى فى العهود القديمة حيث غلبت على تاريخهم الأساطير فسنطلق عليهم اسم التورانيين . والغرض من هذا مجرد الفصل الواضح بين عهدين عاشتهما الشعوب التركية ، عهد اسطورى قديم ، وعهد تاريخى .

١ - التورانيون والايرانيون :

أما التورانيون فتنسبهم الشاهنامة إلى تور بن افريدون . وأقدم علاقة عرفناها بين التورانيين والإيرانيين ترجع إلى عهد هذا الملك ، فإنه قبل وفاته قسم مملكته بين أولاده الثلاثة فأعطى (سلم) وهو الابن الأكبر أرض الروم وبلاد المغرب وماتاخمها من تلك الممالك ، وأعطى لتور بلاد الصين والترك . أما ايرج وهو أصغر الاخوة فقد خصه بخير ما فى مملكته من البلاد إذ جعل له القسم الأوسط من المملكة الممتد من بلاد العراق حتى آخر بلاد

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٩

(٢) المصدر السابق : ص ٣٠

الهند ، ثم خصه فوق ذلك بولاية العهد . وأثار هذا التحيز ثائرة الأخوين تور ، سلم . وبدأت الغيرة تنهش قلبيهما وتوجه سلوكهما ضد أخيهما الصغير ايرج .

وكان ايرج ذكياً فطناً فأحس بما يضمره نحوه أخواه من الكراهية وأراد أن يسترضيهما ويزيل ما بنفسيهما من الحقد عليه . ولكن المنافسة احتدمت ولم يسيطر تور على أعصابه فهجم على أخيه ايرج وقتله . وكان قتله سبباً فى اشعال نار الحروب بين أعقاب هؤلاء الاخوة أجيالا طويلة . وبدأت لهذا السبب سلسلة الحروب بين أعقاب ايرج أو ايرا الذى ينتسب اليه الايرانيون طلباً للثأر وبين أعقاب أخيه تور الذى ينسب اليه التورانيون.

وأول هذه الحروب وقع فى عهد منوجهر حفيد ايرج ، فعندما بلغ منوجهر هذا مبلغ الرجال عزم على الانتقام لجده . وفى القتال الذى دار بين الايرانيين والتورانيين دارت الدائرة على هؤلاء الأخيرين وقتل تور . ولم يكتف منوجهر بقتل تور فى الشرق ولكنه اتجه بعد ذلك إلى الغرب حيث قتل أخاه سلم . وبدا أن الأمر كله قد خلص لمنوجهر الذى انفرد بالمملكة بعد مقتل جديه تور وسلم .

لكن الهدوء الذى ساد المملكة فى عهد منوجهر بعد انتصاراته على جديه لم يلبث حتى تبدد بعد وفاته لأن التورانيين بلغهم ما كان عليه نوذر بن منوجهر من سوء الرأى وضعف التدبير . ووجدوا الفرصة سانحة للانتقام من الايرانيين والاستيلاء على بلادهم . وكان بطل التورانيين فى ذلك الوقت افراسياب الذى غزا بجيوشه الايرانيين وقضى عليهم وأسر ملكهم نوذر ثم لم يلبث حتى قتله ، وأقام مقامه فى حكم بلاد الفرس (١) . ويعد هذا أول حكم تركى لبلاد الفرس .

وفى عهد زوبن طهماسب كان التورانيون والايرانيون قد سئموا

---

(١) شاهنامه : ١/٢٧٣ ط بروخيم تهران

ما يجرى بينهم من القتال وحل بالبلاد قحط شديد دفع الفريقين إلى التفكير فى السلم ، والكف عن الحرب . وتم الصلح بينهما فعلا . واتفق الطرفان بمقتضاه على أن يسيطر التورانيون على المنطقة الممتدة شرق نهر جيحون وأن يسيطر الايرانيون على المناطق الواقعة غربى ذلك النهر . وجعلوا النهر حداً فاصلا بينهم .

ولكن التورانيون عندما بلغهم موت «زوه» نقضوا معاهدتهم مع الفرس وأسرع أفراسياب بجيوشه فعبر نهر جيحون قاصداً بلاد الفرس . وفى ذلك الوقت كان كرشاسب بن زو قد مات هو الآخر وتولى الأمر بعده الملك كيقباد رأس الدولة الكيانية . وبزغ نجم البطل الايرانى المشهور رستم بن دستان .

وفى القتال الذى دار بين الايرانيين بقيادة رستم والتورانيين بقيادة افراسياب حلت الهزيمة بالتورانيين وقتل منهم عدد كبير . وتراجع افراسياب إلى دامغان ثم عبر جيحون عائداً إلى بلاده . وبعد تقليب الأمر استقر رأى افراسياب وابيه بشنك على موادعة الايرانيين نظراً لما رأوه من قوتهم وحسن استعدادهم . وتم الصلح فعلا بين الجانبين على أن يلزم كل فريق حده ولا يتجاوزه بالاعتداء على الجانب الآخر . وكان الحد بينهما هو نفسه نهر جيحون ، فللتورانيين ما يقع شرقه من البلاد ، وللايرانيين ما يقع غربه .

ولكن التورانيين لم يحرصوا دائماً على الوفاء بتعهداتهم فعندما بلغ افراسياب وقوع الملك كيكاوس أسيراً لملك هاماوران أسرع إلى بلاد ايران فاستولى عليها وقتل أهلها حتى اضطر كثيراً من الايرانيين إلى الهجرة من بلادهم فراراً بأرواحهم إلى زابلستان حيث كان يقيم رستم بن دستان ، واستغاثوا به لانقاذ ملكهم من أسر هاماوران ولطرد التورانيين من ايران . واستطاع رستم أن يخلص كيكاوس من أسر ملك هاماوران ثم استعد بعد ذلك لقتال التورانيين وطردهم من البلاد . وتولى كيكاوس قيادة

الجيوش الايرانية وهزم التورانيين ، وأجلاهم عن بلاده ، واستتب الأمر لكيكاوس ودانت له البلاد بالطاعة .

وحدث بعد ذلك أن خرج البطل الايرانى رستم مع بعض قواده للصيد فانحرف إلى بلاد توران وتوغل فيها هو ومن معه فسمع بذلك افراسياب وأعد العدة للهجوم عليهم حتى يخلص منهم . وكان أمله أن يقضى على رستم ومن معه من أبطال الايرانيين فيتزعزع بذلك ملك كيكاوس . ولكن افراسياب خاب أمله وكاد يهلك فى القتال معهم ، ونجا بصعوبة بعد أن خسر كثيراً من رجاله وعتاده .

ووقعت بعد ذلك الحرب السادسة بين التورانيين بقيادة سهراب (وهو ابن رستم من ابنة ملك شمنجان التركى) ، والإيرانيين بقيادة رستم وقد وقد بدأت الحرب بهجوم سهراب على بلاد ايران واستيلائه على بعض قلاعهم . فأنفذ اليه الملك كيكاوس القائد رستم للقائه ومنعه من التوغل فى ايران . ولم يكن رستم يعرف ابنه سهراب ولا كان سهراب يعرف أباه رستم . ودارت الحرب بينهما وكل منهما يجهل صلته بالآخر وبعد عدد من المبارزات بين القائدين قتل سهراب على يد أبيه الذى اكتشف الحقيقة بعد فوات الأوان (١) . وهذه المأساة من أشهر القصص الفارسية .

ولم يسكت افراسياب عن قصد بلاد إيران فى عهد الملك كيكاوس الذى ندب للقائه ابنه سياوش وضم اليه قائد جيوشه رستم . وزحف سياوش بجيشه الكثيف حتى التقى بالتورانيين عند مدينة بلخ . وهناك دارت عليهم الدائرة فأسرعوا إلى نهر جيحون يعبرونه للعودة إلى أوطانهم . ولم يكن افراسياب قد اشترك فى هذه المعركة وساءه ما بلغه من انهزام التورانيين وفكر فى المصالحة على أن يلتزم كل منهما الحدود التى رسمت بينهما منذ أيام أفريدون . وقبل سياوش مصالحة افراسياب الا أن أباه ككاوس

---

(١) شاهنامه : ٢/٥٠٢

رفض هذه المصالحة ودعا ابنه إلى تسليم من عنده من الرهائن التورانيين والعودة بهم إليه . ولكن سياوش رفض أن ينقض عهده مع الأتراك ولجأ إلى بلادهم حيث عاش فى كنفهم محوطاً بالرعاية والإكرام . وقد بالغ افراسياب فى إكرامه فزوجه ابنته فرنكيس التى وضعت له مولوده كيخسرو بن سياوش المشهور بين ملوك الفرس . ولكن حياة سياوش لم تطل بين الأتراك بسبب الدسائس والمؤامرات التى انتهت بمقتله هناك .

ولما علم كيكاوس بمقتل ابنه سياوش صمم على الانتقام وأرسل رستم فى اثنى عشر ألف فارس للثأر . وتقدم جيش رستم يفتح البلاد حتى إذا التقى بزعماء التورانيين صرعهم واحداً بعد الآخر كما صرع ولدى افراسياب وأخاه كرسيوز . أما افراسياب فاستطاع أن ينجو من الهلاك وفر مع من بقى من التوران : واستولى رستم على بلادهم ، ودمر مدنهم ، ونهب قراهم ، وأعمل السيف فى رجالهم ، وسبى نساءهم حتى أتوه متضرعين يلتمسون منه الرحمة ويعلنون البراءة مما ارتكبه افراسياب فكف أذاه عنهم ثم ما لبث أن عاد إلى كيكاوس إذ رأى من الصواب أن يكون قريباً منه . وعندما أحس افراسياب بعودة الايرانيين إلى بلادهم ظهر من جديد ، وبدأ يجمع فلول جيشه .

وفى هذا الوقت كان كيخسرو قد صمم على الانتقام لأبيه سياوش من التورانيين ، ولكن جيش كيخسرو بقيادة طوس شغل عن القتال باللهو والسكر فاغتنم التورانيون الفرصة بقيادة بيزان وهجموا على الايرانيين فى معسكرهم وأوقعوا بهم وقعة عظيمة شتتت شملهم وأبادت جمعهم . فلما علم كيخسرو بذلك عزل طوس عن القيادة وبعث بجيش جديد يقوده عمه فرى برز . وحل بهذا الجيش ما حل بسابقه من الهزيمة والاندحار . وغنم التورانيون فى تلك الحرب غنائم كثيرة من الأيرانيين . ولم ييأس الايرانيون من القتال فعاودوه مرة ثالثة بلا فائدة ولم يكن أمامهم بد بعد ذلك من الاستعانة برستم بعد أن فشل طوس أكثر من مرة أمام التورانيين ولم يطل بهم الانتظار حتى وصل رستم ومعه النجدة . وبعد مناوشات

ومبارزات عديدة التقى الجمعان . ولم يصمد التوران طويلا ، وولوا الأدبار . وأقبل الايرانيون على خيامهم يغنون ويجمعون ما خلفه التورانيون وراءهم من أموال وكنوز . ولم يجد افراسياب بعد هزيمة جنده بدا من التقدم بنفسه ولكنه لما رأى قوة الايرانيين آثر الانسحاب هو الآخر .

ثم تجددت الحرب بعد ذلك حين بلغ افراسياب أن الملك كيخسرو قد عزم على عبور جيحون فتقدم اليه فى عسكر جرار وخيم فى صحراء آمل ورتب جنده وتقدم كيخسرو حتى قرب من معسكر افراسياب وحفر حول معسكره خندقاً ملأه بالماء . وفى المبارزات التى سبقت الحرب قتل كيخسرو ، خاله شيده بن افراسياب (١) وبعد يومين من المبارزة نشب القتال العام بين الفريقين وانتهى بفوز الايرانيين . واتخذ افراسياب من الليل ستاراً وعبر مع جنوده نهر جيحون عائدين إلى بلادهم . ولم يسكت كيخسرو عن طلبهم وظل يتعقبهم ويستولى على بلادهم حتى عم الخراب وأخذ افراسياب يهيم على وجهه فى البلاد لا يأمن إلى أحد إلى أن وجد مغارة مهجورة فى أحد الجبال فأقام بها . ولكن حفيده كيخسرو عرف مكانه فأسرع اليه ، وشد وثاقه ، وقتله بالسيف . وبذلك انقضى أمر افراسياب بطل التورانيين .

ولما تولى كشتاسب بن لهراسب ملك ايرا أطاعه الملوك وأدوا له الجزية الا ملك توران ارجاسب فإنه وحده كان يأخذ الأتاوة من الإيرانيين وفى عهد كشتاسب ظهر زردشت وآمن به كشتاسب ودعا الناس ومن حوله من الملوك إلى الإيمان به . ونصح زردشت الملك كشتاسب ألا يذعن لأرجاسب وأن يقطع عنه الجزية التى يدفعها له . وعمل كشتاسب بنصح زردشت مما أثار الحرب من جديد بين الايرانيين والتورانيين . واستعرت نيران الحرب بين الفريقين اسبوعين وانتهت بهزيمة ارجاسب . ومضى

---

(١) افراسياب جد كيخسرو لأنه أبو فرنكيس أمه . وعلى هذا فالملك كيخسرو ايرانى الأب تورانى الأم . كما كان البطل الايرانى سهراب بن رستم ايرانى الأب تورانى الأم . وأمه هى هى ابنة ملك سمنجان التورانى .

تحت جنح الظلام هارباً إلى بلاده فى الصين . وترك من بقى من رجاله أسرى فى قبضة الايرانيين . وبلغ أرجاسب بعد ذلك ما وقع من الخلاف بين كشتاسب وولده اسفنديار واضطراب أحوال البلاد فأسرع ينتهز الفرصة ويغير على ايران . ولم تطل هذه الحرب أكثر من ثلاثة أيام وانجلت بانهزام الايرانيين هزيمة ماحقة . وبعدها صفح كشتاسب عن ابنه وولاه قيادة جيشه بعد ذلك فاستطاع أن يهزم التورانيين ورغب فى أن يقتفى أثرهم وأن يتبعهم فى بلادهم ، واستطاع فى قصة طويلة أن يقضى على أرجاسب وأن يستولى على بلاده ، ويطلق لأتباعه العنان يسرفون فى القتل ويثأرون من التوران .

وفى العهد الساسانى تتجدد وقائع التورانيين مع الايرانيين فى عهد بهرام كور . وكانت سيرة بهرام فى اللهو واقباله على العبث قد شاعت فطمع خاقان التوران فى بلاده . وفى الوقت الذى بدأ فيه الخاقان التورانى يتوغل فى ايران كانت جيوش الروم تستعد للزحف من الغرب . ونزل خاقان التوران بجيوشه فى مرو . وغره ما كان من قوته وضعف حال الايرانيين حتى بغته سراً فى مصيده أحد أتباع بهرام فأخذه على غره وقضى عليه . ولم يفق التوران الا على أصوات الايرانيين يكبسونهم ويحيطون معسكرهم من كل جانب . واستطاع بهرام أن يقضى على التوران ويطهر مرو منهم ويقتفى أثرهم فى بلادهم حتى أتوه خاضعين والتزموا بدفع الخراج له .

وفى عهد فيروز بن يزدجرد تجدد القتال من التوران وكان ملكهم «خوش نوازه» . وكانت هذه الحرب شؤماً على فيروز والايرانيين لأن التوران خدعوهم وأقاموا حول معسكرهم فى سمرقند خندقاً غطوه بالأعشاب ولما وصل فيروز وتقدم ومن معه من كبار أهله وقواده للقاء هؤلاء التوران وقع فى الخندق وقضى عليه (١) .

---

(١) شاهنامه : ٢٢٧٤/٨

واستطاع ابنه بلاش أن يثأر له من بعده حتى أرغم التوران على طلب الصلح والتعهد برد ما غنموه فى حربهم مع فيروز وإعادة الأسرى الذين كان من بينهم قباد بن فيروز وموبد الموبدان أردشير . والحرص على سلامة هؤلاء الأسرى كان السبب الذى دفع الايرانيين إلى قبول الصلح الذى طلبه الأتراك . ولزم كل فريق بموجب هذا الصلح حده وجعلوا من نهر جيحون فاصلا بينهم كما كان منذ عهد أفريدون .

وجاء قباد بن فيروز وبدأ عهده بمحاربة الخزر وانتصر عليهم ثم شغل بمحاربة الهياطلة عشر سنين (٥٠٣ — ٥١٣) حتى استراح الايرانيون من شرهم . ومع أن سوفزاى هو الذى خلص قباد من ايدى الهياطلة الا أن هذا الأخير لم يرع حقه عندما عاد إلى ملكه فقتله طغياناً منه واستبداداً وثار الشعب بعد مقتل سوفزاى ضد قباد ، وانقسم المؤرخون فى أسباب هذه الثورة فظن بعضهم أنها كانت من أجل سوفزاى واحتجاجاً على مقتله . والحقيقة أن هذه الثورة كانت بسبب ايمان قباد بمزدك واعتناقه الديانة المزدكية ومحاولته فرض هذه الديانة على الناس مما أفسد المجتمع الايرانى إفساداً شديداً . وقد نجح الثوار فى القبض على قباد وسجنه الا أنه استطاع أن يهرب من السجن ويلجأ إلى الهياطلة ويستعدى ملكهم على الايرانيين فأمده بثلاثين ألف مقاتل عاونوه على الرجوع إلى بلاده والتنكيل بأعدائه وتثبيت عرشه .

وعندما تولى كسرى أنوشروان الملك أمر ببناء سد عظيم بين توران وايران يمنع تدفق هؤلاء التورانيين على بلاده . وهذا السد يمتد فى ولايتى اذربيجان وأرمينيه قرب أردبيل . ويعرف بسد أرمينية أو الباب الحديد أو الباب أو باب الأبواب (١) . كما يعرف أيضاً بسور الصين وسور الحجارة (٢) .

---

(١) م . الرمزى : تقليق الأخبار ص ١٦٩ ط أورنبوع

(٢) المسعودى : مروج الذهب ١/٢٠٥ ط ثالثة محيى الدين عبد الحميد

وأراد خاقان التوران أن يهادن كسرى أنو شروان لما سمع من حسن سيرته وقوة بأسه فأرسل اليه وفداً بهدية عظيمة . وخشى الهياطلة الذين يمر وفد الخاقان ببلادهم أن يتصادق الطرفان فيسهل القضاء عليهم ، وفكروا فى طريقة لإفساد ما بينهما فهجموا على الوفد وقتلوه وسلبوا الهدية ، ولما علم الخاقان بفعلتهم وجه إليهم جيشه . ووقعت بين التوران والهياطلة واقعة عظيمة قرب قرية نخشب استمرت ثمانية أيام وانتهت بانتصار التورانيين وقتل ملك الهياطلة وتحطيم جيشه . ورأت الفلول المهزومة أن تنضم إلى إلى جيش كسرى أنوشروان لتحمى نفسها . وفكر الخاقان فى الهجوم على ايران بعد ذلك ولكنه عدل عن فكره ورأى من الأصوب أن يتصل بكسرى بصلة النسب ويوثق ما بينهما بوثاق متين فزوجه إحدى بناته وأحبهن إلى قلبه . وهدأت الأحوال بين التورانيين والايرانيين وانتشر السلام وعمرت البلاد وعم الخير .

وفى عهد هرمزد بن كسرى أنو شروان أحاط به الاعداء من كل جانب ، فأقبل ساوه شاه ملك التورانيين قاصداً ايران ، واستعد فى الغرب قيصر الروم ، وتحفز للانقضاض أيضاً ملك الخزر . وضيق الاعداء عليه الخناق من كل جانب . واستطاع هرمز أن يفض هذا الجمع فصالح ملك الروم ، وهاجم ملك الخزر الذى ما كاد يسمع بقدومه حتى فر أمامه . ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى ملك التوران فجهز لملاقاته جيشاً بقيادة بهرام جوبين . وانهزم التورانيون أمامه ، وقتل ساوه ، وتبدد شمل جيشه . وابتهج الايرانيون بهذا الظفر العظيم وأعفى هرمزد الناس من خراج الأرض أربع سنين ابتهاجاً بهذه المناسبة (١) . وحاول برموده أن يثأر لأبيه ولكنه ولكنه متى هو الآخر بالهزيمة واضطر إلى الاستسلام آخر الأمر .

ولم يلبث بهرام طويلا حتى انقلب على ملك ايران وتقدم لحرب كسرى برويز الذى سار لملاقاته بالنهروان . وروى المسعودى فى ذكر هذه الواقعة

---

(١) شاهنامة : ٨/٢٦٢٣

أن بهرام جوبين حين بلغـــه قتل هرمزد أسرع إلى المدائن من النهروان فاستولى على الملك . ورأى برويز أن يستعين بملك الروم فكاتبه فى هذا الشأن ووعده أن يعوضه عما ينفق من أموال وأن يدفع اليه ديات من يقتل من جند الروم . وبعث إليه بهدايا عظيمة . واشترط ملك الروم مقابل هذه المساعدة أن ينزل له برويز عن الشام ومصر اللتين كانتا خاضعتين لسلطانه فأجابه برويز إلى ما طلب . ولما اجتمعت الجيوش لأبرويز هاجم بهرام فهزمه (١) ولم يجد بهرام بدا من اللجوء إلى خاقان التورانيين الذى آواه وأكرم مثواه واستطاع الايرانيون بعد ذلك أن ينفذوا إلى مخيم بهرام بن التوران من يطعنه بسكين فيقضى عليه (٢) .

هذه هى خلاصة ما ورد فى الشاهنامة من الحروب التى دارت بين التورانيين والايرانيين فى العهود البيشدادية والكيانية والساسانية . ويلاحظ أن ماورد من هذه الوقائع فى العهدين البيشدادى والكيانى أسطورى لأن هاتين الدولتين من الدول الأسطورية عند الفرس . أما ماورد منها فى تاريخ الساسانيين فانه يتضمن كثيراً من الوقائع التاريخية وان لم يسلم الأمر من المبالغات والأقاصيص .

ويلاحظ أن العلاقات بين التورانيين والايرانيين فى الفترة السابقة كانت تقوم على العداوة والحرب ورغبة كل فريق فى القضاء على الفريق الآخر وتملك أراضيه .

ولا شك فى أن الحروب كانت مظهرا مهما من مظاهر الاتصال والاحتكاك بين الفريقين ، كما كانت التجارة مظهراً آخر من مظاهر هذا الاتصال . فقد كان التورانيون أهل بداوة ولم تكن الحضارة قد عرفت طريقها إلى مجتمعهم بعد . وكان المجتمع الايرانى وخاصة فى العهد الساسانى متحضراً . ومن هنا كان التوران البداة فى حاجة إلى ما يصنع فى ايران من السلع . يضاف إلى هذا التجاور المكانى بين الطرفين .

---

(١) المروج : ١/٢٧٥

(٢) شاهنامه : ٩/٢٨٢٤

وقد كان لهذا الاتصال بين الشعبين آثاره ومظاهره ونتائجه . وقد عرف التوران الكتابة من الايرانيين . كما أن الديانات المختلفة التى ظهرت فى بلاد الفرس تسربت أيضاً إلى المجتمع التورانى . وقد عرف التورانيون الديانة الزردشتية كما انتشرت بينهم الديانة المانوية . ويذكر بارتلد أنه لم تكد دولة الأتراك الغز تسقط حتى أخذت المانوية تنتشر بين الترك على نطاق واسع (١) . ومعنى هذا أنها كانت معروفة قبل ذلك أيضاً . ولا معنى لأن يسلم بارتولد بانتشار الديانة المانوية بين الأتراك ثم ينكر انتشار الديانة الزردشتية فى المجتمع التورانى (٢) . وإذا كان بارتولد ينكر فى صفحة ١٢ انتشار الزردشتية فى المجتمع التورانى فانه بذلك يناقض نفسه بعد ذلك فى صفحة ٤٠ حيث يعترف صراحة أنها انتشرت هناك بحكم وقوع التورانيين تحت تأثير المدنية الايرانية وهذا هو الشىء الطبيعى الذى نسيه بارتولد فى أول الأمر . ويستشهد بارتولد على انتشار الزردشتيه فى صفحة ٤٠ (التى سبق له أن انكر انتشارها فى ص ١٢) بالرحالة الصينى هيوان تسانج الذى جاب أواسط آسيا سنة ٥٣٠ . ويستند بارتولد على كتابات هذا الرحالة فى القول بأن الديانة الزردشتية غزت المجتمع التركى وانتصرت على الديانة البوذية فى أواسط آسيا منذ أواخر الدولة الساسانية (٣) .

وتبدأ الوقائع الصحيحة لتاريخ الترك من عهد كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) ففى القرن السادس أقام التوران دولة بدوية عاشت إلى القرن الثامن . وامتدت هذه الدولة امتداداً واسعاً من حدود الصين الشمالية إلى البحر الأسود . وكان هؤلاء التورانيون ينسبون إلى الغز . وقد قامت هذه الدولة على أكتاف أخوين هما بومين الذى حكم الجانب الشرقى من الدولة وتوفى ٥٥٢ م ، واخوة استمى الذى كان أطول عمراً واستمر يحكم الجانب الغربى من الدولة بعد وفاة أخيه بنحو ربع قرن . وفى سنة ٦٣٠ م

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٣

(٢) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٢

(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٤٠

قضت الأسرة المالكة فى الصين ، أسرة تانغ ، على الجزء الشرقى من الدولة وأتبعته بالقضاء على الجزء الغربى سنة ٩٥٩ . ولكن التورانيين لم يستسلموا للخضوع وحققوا استقلالهم من جديد ، وظلت دولتهم قائمة حتى سنة ٧٤٥ (١)

وحوالى سنة ٧٠٠ م كانت الفتوحات العربية قد استطاعت أن تسيطر على الأجزاء الغربية من هذه الدولة بينما سقطت الأجزاء الشرقية فى سنة ٧٤٥ فى يد قبيلة تركية أخرى هى الأويغور .

٢ - الفتوح الاسلامية :

لم تكن صلة المسلمين بما وراء النهر مستقرة واضحة أول الأمر فكان الحكام العرب يشنون الغارات على ما وراء النهر ويعودون كل سنة إلى أماكنهم فى خرسان (٢) . ويروى الطبرى أن الأمراء المحليين فى ذلك الوقت كانوا يجتمعون فى كل سنة ليفضوا ما بينهم من المنازعات بالحسنى وليتعاهدوا على مواصلة الجهاد ضد العرب .

ومما كان يشجع العرب على غزو الأقاليم الشرقية بالاضافة إلى نشر العقيدة واعلاء كلمة الدين ازدياد الأموال التى يغنمونها . وكان لمساعدة الأهالى أنفسهم أثر كبير فى الانتصارات التى أحرزها العرب فيما وراء النهر . ويعزى جانب من نجاح قتيبة فى فتح تلك الأصقاع إلى مساعدة العناصر الوطنية . أما بطء الغزو فراجع إلى أن العرب قنعوا إلى حد ما لفترة طويلة بالغنائم الحربية والجزية ولم يهتموا بأن يكون الفتح مستمراً متصلا . هذا إلى وجود العقبات الطبيعية التى لم يكن لها مثيل فى بيئتهم .

ومع أن المسلمين غزوا ما وراء النهر فى سنة ٤٦ هـ على يد القائد ربيع ابن الحارث الا أن معرفتهم بهذا الاقليم ورغبتهم فى فتحه كانت أقدم من ذلك فابن الأثير فى حوادث سنة ٢٢ يذكر أن الأحنف بن قيس غزا خراسان ،

---

(٤) بروكلمان : الامبراطورية الاسلامية وانحلالها – الترجمة العربية ص ١١٠ بيروت

(١) كانت ما وراء النهر تتبع حاكم خراسان .

وأن عمر أذن للمسلمين فدخلوا بلاد فارس تعقباً ليزدجرد ، وأنهم هزموه عند بلخ ففر منهم وعبر النهر ، ورغب المسلمون فى مطاردته ولكن عمر كتب إلى الأحنف وطلب اليه أن يقتصر على مادون النهر ولا يجوزه . ولا شك فى أن عمر أراد أن يعفى المسلمين من التوغل فى تلك الأقاليم خوفاً عليهم لجهلهم بها .

وبمرور الأيام سمع العرب الشيء الكثير عن تلك الأقاليم الغنية فكانوا يقومون بغزوات متقطعة غير منظمة يعودون منها بالغنائم الكثيرة فعرف العرب تلك الأقاليم بالتدريج وشجعهم غنادا وضعفها على أن يقوموا بغزواتهم التى أخذت شكلها المنظم فيما بعد .

وفى سنة ٤٦ أرسل زياد بن أبى سفيان ربيع بن الحارث إلى خراسان فسار حتى بلخ . ومن هناك عبر النهر . ولم تكن لهذه الغزوة أهمية كبيرة لأن ربيعاً لم يكن له هدف مرسوم من هذا الغزو .

وفى سنة ٥٤ عين معاوية عبيد الله بن زياد والياً على خراسان . وكان عبيد الله شاباً فتياً فقطع النهر إلى بخارى واستولى فى طريقه على بيكند المدينة الغنية بعد حرب طويلة ، ونال من فتحها غنائم عظيمة وحمل عدداً كبيراً من الأسرى ثم تابع سيره إلى بخارى . وكانت تحكمها الخاتون التى استنجدت بمن حولها من الأتراك فخفوا إلى نجدتها فى جيوش كبيرة ، ولكن المسلمين تغلبوا عليهم فى النهاية وقتلوا منهم كثيرين فتفرقت جيوش الأتراك مسرعة إلى أوطانها وفرت الخاتون إلى قلعتها وأراد عبيد الله أن ينتقم منها بتخريب مدينتها فأرسلت اليه تطلب الصلح فصالحها على مال كثير وحمل معه أربعة آلاف أسير .

ثم عزل عبيد الله سنة ٥٦ وحل محله سعيد بن عثمان الذى عبر النهر قاصداً بخارى . فلما علمت الخاتون بذلك أرسلت اليه تذكره بالصلح

الذى عقدته مع سلفه وضاعفت له فى المال والهدايا . ولكن سعيداً نبذ المعاهدة، ورد اليها هداياها، وتقابلت جيوشه مع جيشها وجيوش من خفوا لنجدتها من الصغد وكش ونخشب . وانتهى الأمر بهزيمتهم جميعاً فانفضوا من حولها ولم تجد بداً من طلب الصلح فصالحها سعيد الا أنه طلب منها رهائن عنده حتى يضمن سلوكها نحوه وعدم انقضاضها عليه أثناء غزوه للصغد وسمرقند ، فقدمت اليه ثمانين شخصاً من دهاقنة بخارى وأمرائها ويذكر نرشخى أن هؤلاء الرهائن كانوا من بين المتآمرين عليها وعلى ولدها طغشاده فتخلصت منهم بهذه الطريقة (١) .

ومن ألمع الشخصيات الإسلامية التى نشرت الإسلام فى المشرق شخصية القائد العربى قتيبة بن مسلم . وتعتبر غزوات قتيبة مرحلة بارزة من مراحل الغزو الإسلامى فى آسيا الوسطى . واستطاع قتيبة فى سنوات متعاقبة أن يستولى على بخارى ونسف وسمرقند . وفى سنة ٩٤ هـ غزا قتيبة الشاش وفرغانه ووصل إلى الصين وفتح مدينة كشغر فى سنة ٩٦ هـ . واستطاع قتيبة أن يحقق نصراً إسلامياً فى تلك المناطق بنشر الدين الاسلامى هناك الذى قضى على الديانة الزردشتية . ويلاحظ أن الفتح لم يكن كافياً لتثبيت الإسلام فى قلوب البخاريين . ويروى النرشخى أن البخاريين كانوا يعتنقون الإسلام إذا ما غزاهم العرب ثم يرتدون عنه إذا رحل العرب . وكان من عادة العرب الفاتحين أن يرحلوا عن تلك الأصقاع الباردة إذا حل الشتاء ويعودوا إلى خراسان . وفى كل غزوة من غزوات قتيبة كانوا يعلنون الإسلام ثم يعودون إلى دينهم القديم حين يرجع العرب عنهم . وقد بذل العرب مجهودات كبيرة ليثبتوا دعائم هذا الدين الجديد .

وكان أشد الناس ضيقاً بهذا الدين وعناداً له رجال الأديان التى كانت منتشرة فى تلك الاصقاع قبل الإسلام ، والأشراف . وقد لاحظ العرب ذلك كما لاحظوا أن كثيراً ممن اعتنقوا الإسلام فى الظاهر خوفاً ورهبة كانوا يزاولون عبادتهم القديمة سراً أو فى سكون الليل . فأمر قتيبة كل بخارى

---

(١) نرشخى : تاريخ بخارا ص ٤٦ ط سعادت ١٣١٧ تهران

أن يفسح فى بيته مكاناً لعربى يساكنه فيه . وكان هؤلاء العرب عيوناً للدولة يبلغون عن كل من يرتد عن الاسلام أو يمارس شعائر دينه القديم .

ومما بذله قتيبة لنشر الدين الجديد وتشجيع الناس على اعتناقه أنه بنى فى سنة ٩٤ هـ المسجد الجامع فى قلعة بخارى . وجعل لكل من صلى فيه الجمعة درهمين مكافأة . وذكر النرشخى أنه رأى مسجد بخارى فى أيامه وعلى أبوابه نقوش وصور وثنية ، وأنه سأل عن سبب ذلك فعرف أن أغنياء بخارى كانوا قد أقاموا لأنفسهم خارجها سبعمائة قصر . وفى أحد أيام الجمع دعا المسلمون أولئك البخاريين إلى الصلاة فى المسجد فرموهم بالحجارة فهجم المسلمون على تلك القصور وانتزعوا أبوابها وجعلوا منها أبواباً للمسجد حين وسعوه . وكان على تلك الأبواب صور أصنامهم ومعبوداتهم فأزالوا من تلك الصور ما استطاعوا وتركوا الباقى (١) .

ولم يكن المسلمون فى بخارى يستطيعون فى أول الأمر الظهور فى الشوارع أو الأماكن العامة بغير سلاح خوفاً على أنفسهم من الكفار وبقيت هذه العادة حتى عهد النرشخى (٢) . وإمعاناً فى الحيطة لم تسمح السلطات للعناصر الوطنية بحمل السلاح إلا بعد أن تعلن إسلامها .

ويذكر بارتولد أن تأثير المدنية الايرانية فى بلاد الترك قد ازداد بعد غزو المسلمين وانتشار الاسلام هناك (٣) . وإذا كانت الديانة الزردشتية الايرانية قد أضعفت أثر الديانة البوذية هناك فإن الإسلام قد أثر فى الزردشتية وأضعف شأنها . وانتشر بين أهالى المناطق الشرقية قصص الفرس القديمة وأخبار ملوكهم الأقدمين ، وبدأت اللغة الفارسية تسود فى تلك المناطق . ويقرر بارتولد أن اللغة التركية إذا اجتمعت مع الفارسية فى قطر من الأقطار

---

(١) نرشخى : تاريخ بخارا ص ٥٧

(٢) نفس المصدر ص ٦١

(٣) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٣٩

فإنها ننتصر عليها (١) . وهذا الرأى ليس صحيحاً ولا يمكن التسليم به فتاريخ الترك سواء منهم الذين عاشوا فى المناطق الشرقية أو الغربية يدل على أن لغتهم وأدبهم ظلت تحمل حتى وقت متأخر طابع اللغة الفارسية وأدبها وأن الأدب التركى نشأ فى ظل الأدب الفارسى ومنه استمد نماءه وقوته . وعندما اهتم الأتراك بعد قرون طويلة بلغتهم وجعلوها لغة للتآليف العلمية والأدبية لم يضعف شأن الفارسية وظلت تزاحم التركية . وهذا موضوع طويل لا يحتمله هذا البحث .

٣ — القراخانيون والسامانيون :

انتشر الإسلام بين الترك فى عهد الدولة السامانية الايرانية التى سيطرت فى القرنين التاسع والعاشر (من ٨٢٠ — ١٠٠٠ تقريباً م) على أواسط آسيا وبلاد ما وراء النهر (٢) .

وينسب هؤلاء السامانيون إلى قرية من قرى بلخ يقال لها سامان (٣) . وكان جد الأسرة والياً على القرية يقال له سامان خدا . وينتهى نسب السامانيين إلى بهرام جوبين . وقد مر ذكره فيما سبق (٤) . وقد أسلم سامان هذا فيما بعد

وفى ختام القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) حين ظهرت الدولة الصفارية التى قضت على حكم الطاهريين وأصبح لها السيادة فى فارس طمع امراؤها فى أن يوسعوا حدود دولتهم وأن يبسطوا سلطانهم على بلاد ما وراء النهر مما عجل بدولتهم وقضى عليها ، وذلك أن عمرو بن الليث بعد أن صارت له السيادة فى فارس أراد أن يضم اليه كل ما كان للطاهريين فيما وراء النهر . وكان هذا سبب القضاء على دولته إذ كانت قوة السامانيين

---

(١) نفس المصدر ص ٤٢

(٢) بينا فيما سبق أن الإسلام عرف طريقه إلى بلاد الأتراك قبل ذلك بفترة طويلة فى الفتوح الاسلامية الأولى منذ عهد قتيبه بن مسلم سنة ٨٦ هـ

(٣) معجم البلدان : ٣/١٣ ط ليبزج

(٤) راجع ص١٣ من هذا البحث .

فى ذلك الوقت قد توطدت . وتفسير ذلك أن عمراً كان قد ثبت ملكه فى فارس فلم يستطع الخليفة أن يرد له طلباً . وكان طلبه أن يضم إلى ملكه ما وراء النهر فأصدر الخليفة أمراً بعزل اسماعيل السامانى وتولية عمرو بن الليث نائباً للخليفة فيما وراء النهر . ولم يذعن اسماعيل لهذا القرار وقامت الحرب بينه وبين عمرو وانتهت بهزيمة جيش عمرو الذى كان يقوده محمد ابن بشير . ولما بلغ الخبر عمرا استعد بنفسه لحرب اسماعيل وسار من ينسابور إلى بلخ . وهناك تقابل الجيشان وحلت الهزيمة بعمرو فحاول الفرار ولكنه أسر وأرسل إلى الخليفة المعتضد فى بغداد سنة ٢٨٨ هـ حيث قتل فى السنة التالية . وباختفاء عمرو من الميدان خلا الجو لاسماعيل السامانى وكان على الخليفة أن يقر توليته على ما كان يتولاه عمرو . وتم بذلك لاسماعيل الاستيلاء على خراسان . وأصبحت دولة السامانيين تضم عدداً من المدن المشهورة فى ذلك التاريخ أمثال مرو ، نيشابور ، الرى ، آمل ، هراة ، بلخ ، قزوين ، شيراز ، أصفهان . وكان السامانيون والبويهيون يتقاسمون فى وقت واحد حكم ايران وأواسط آسيا على النحو الآتى : كان للسامانيين خراسان ، سيستان ، بلخ ، بخارى ، سمرقند . وكان للبويهيين العراقان ، فارس ، كرمان ، خوزستان ، لورستان . أما طبرستان وجرجان فكانت تتنقل بينهما . وهكذا ترك اسماعيل السامانى رقعة دولته عندما مات سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م .

وعندما تولى الحكم الأمير منصور الأول قابلته متاعب من قبل حاكم ينشابور التركى البتكين . وعندما وجه الأمير جيوشه اليه تراجع إلى غزنه حيث استعد هناك ونظم جيشه بحيث استطاع أن يقاوم جيش المنصور . وعندما مات البتكين سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦ م انتقلت رياسة هؤلاء الأتراك إلى سبكتكين . وقد استطاع سبكتكين هذا أن يضع أساس دولة جديدة سيطرت فيما بعد على ايران وشمال الهند . ومع أن سبكتكين التركى كان تابعاً للدولة السامانية الايرانية الا أنه كان يتصرف كما يتصرف الحكام المستقلون . وهذه الدولة التركية التى وضع أساسها سبكتكين والتى عرفت

فيما بعد باسم الدولة الغزنية استطاعت أن تقضى على الدولة السامانية من ناحية ، واشتركت معها من ناحية ثانية قوى تركية أخرى هى قوة القراخانيين

وكان هؤلاء القراخانيون قد وجهوا ضربة قوية إلى الدولة السامانية حين استولى بغراخان على مدينة بخارى سنة ٣٨٣ هـ . ولم يستطع نوح السامانى أن يقاوم رغم الجيش الكبير الذى أرسله للاقاة بغراخان . ولما يئس نوح من النصر خرج من بخارى إلى آمل متخفياً . ويشاء الحظ الحسن أن يخالف نوحاً لأن بغراخان لم يقو على المقام فى بخارى لوخامة جوها فرجع عنها إلى بلاد الترك ومات بعد ذلك ، وثار الأهالى على عسكره فى بخارى وفتكوا بهم . وكانت هذه هى الفرصة السانحة لنوح فعاد إلى عاصمته وأحسن الأهلون استقباله . وفى أثناء حروب نوح السامانى مع القراخانيين كان بعض كبار دولته قد ثاروا عليه طمعاً فى مملكته مثل أبى على بن سيمجور ، وفائق . وكان أولهما يكاتب بغراخان سراً ويحضه على غزو بخارى . وانضم فائق بدوره إلى بغراخان فى غزو بخارى . فلما رجع بغراخان عن المدينة إلى بلاده وقضى على الجيش التركى كان على نوح السامانى أن يتخلص بعد ذلك من أتباعه الخونه . وكان أبو على بن سيمجور وفائق قد تحالفا ضده فاستدعى نوح لحربهما سبكتكين وولده محمودا . وتقابلت الجيوش فى هراة وانهزم أبو على هزيمة شنيعة فعاد ومعه فائق إلى نيشابور فتبعتهما جيوش نوح بقيادة سبكتكين واستولت على المدينة . وولى نوح محموداً على نيشابور وعهد اليه بجيوش خراسان ولقبه سيف الدولة كما لقب أباه سبكتكين ناصر الدولة . وعاد نوح بعد ذلك إلى عاصمته بخارى .

ولكن موت نوح فى سنة ٣٨٧ أدى إلى اختلال ملك السامانيين اختلالا ظاهراً . وعندما علم القراخانيون بوفاته وولاية ابنه منصور الثانى بن نوح الثانى هاجموا بخارى بالاشتراك مع فائق ، وفر المنصور أمامهم . وحاول فائق بعد أن دخل بخارى أن يثبت أقدامه بطريقة قانونية فأعلن للناس أنه جاء لمساعدة الأمير على توطيد ملكه ، واستطاع أن يقنع منصوراً بالعودة

إلى عاصمته . وكان طبيعياً بعد أن عاد منصور أن تصبح السلطة والنفوذ فى يد فائق .

وعين فائق قائداً جديداً للجيوش بخراسان هو بكتوزون الذى كان من كبار شخصيات الدولة السامانية قبل سقوط بخارى فى يد فائق . وكان محمود بن سبكتكين حينما تولى بكتوزون قيادة الجيوش بخراسان يحارب أخاه اسماعيل . ولما انتصر عليه واستولى على مدينة غزنه ساءه أن يعين بكتوزون والياً على خراسان . ورأى نفسه أحق بهذا المنصب لما قدمه إلى الدولة من خدمات فكتب إلى الأمير الذى لم يكن يملك من السلطة الفعلية شيئاً ، وعرض عليه الأمير لارضائه بلخ ، ترمذ ، بست ، هراة بدل خراسان ولم يقبل محمود هذا العرض واتخذ الحرب وسيلة لنيل ما يريد .

وفى تلك الأثناء توجس بكتوزون وفائق خيفة من منصور فقبضا عليه ، ووليا مكانه أخاه عبد الله . وكان هذا حافزاً حفز محموداً للاسراع فى حربهما والاستيلاء على الملك ودارت الحرب بين الفريقين فى آخر جمادى الأولى بمرو فانهزم بكتوزون وفائق وأخذ محمود يطاردهما حتى استخلص خراسان منهما ونزعها نهائياً من الدولة السامانية ، وكون لنفسه فيها ملكاً رأى أن يكسبه المظهر القانونى فخطب للقادر بالله . واستولى محمود على أملاك السامانيين فى المقاطعات الواقعة جنوب نهر جيحون ، وهرب بكتوزون وفائق ومعهما الأمير السامانى الجديد عبد الله إلى بخارى .

وفى عهد عبد الملك الثانى بن نوح الثانى (١) . الذى تولى الملك صبياً صغيراً كانت نهاية الدولة السامانية وزوالها على يدى محمود بن سبكتكين التركى ، والقراخانيين (الا يلك خانيين)

وبعد أن استولى محمود على خراسان لم يبق فى يد عبد الملك الأمير السامانى المذكور سوى اقليم ما وراء النهر . وكان قد اجتمع فى بخارى

---

(١) يذكره صاحب تاريخ كزيده خطأ «عبد الملك»

عبد الملك وبكتوزون وفائق وحاول ثلاثتهم أن يقوموا بعمل حربى يستردون به خراسان . وأخذوا فعلا فى إعداد الجيوش ولكن أمرهم انتهى إلى الفشل فقد مات فائق وكان أبرزهم فوهن عزمهم وتفرقت الجيوش التى أعدوها ولم يعد هناك أى أمل فى استرداد خراسان .

ولم يلبث اقليم ما وراء النهر أن لحق بخراسان فإن ملك الترك عندما بلغه ما صار اليه أمر الدولة السامانية من الضعف والعجز وانتزاع اقليم خراسان منها سير إلى بخارى جيشاً استطاع أن يدخلها وأن يقبض على بكتوزون وغيره من القواد والأمراء . وكان ذلك فى يوم الثلاثاء العاشر من ذى القعدة سنة ٣٨٩ هـ . واختفى عبد الملك مدة استطاع بعدها الا يلك خان أن يقبض عليه ويسجنه إلى أن مات .

وهكذا انتهت هذه الدولة السامانية الايرانية على يد هاتين القوتين التركيتين : قوة الغزنيين والقراخانيين . هذه الدولة التى يقول عنها ابن الأثير انها انتشرت وطبقت كثيراً من الأرض من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر .

• • •

وتعتبر مملكة القراخانيين أولى الممالك الإسلامية التركية . وقد بدأ شأن هؤلاء القراخانيين يعلو منذ أواخر القرن العاشر عندما دخلوا فى الإسلام وكانت عاصمتهم فى أول الأمر مدينة كشغر . وامتدت مملكتهم من كشغر حتى بحر آرال . ويرجع أصل هؤلاء القراخانيين إلى قبائل الأويغور . ومن أعظم خاناتهم بغراخان الذى سبقت الاشارة اليه ، والذى اتخذ من مدينة بلاساغون عاصمة له . وضمت مملكته كثيراً من المدن المهمة أمثال كشغر ، ختن ، تراز ، فاراب (اترار) وغيرها من المدن المهمة .

ولم يكتف القراخانيون بالقضاء على دولة السامانيين ولكنهم فكروا فى القضاء على الدولة الغزنية نفسها . وقامت الحروب بين الطرفين .

وكان من أثر زوال الدولة السامانية الايرانية وقيام الدولة الغزنية التركية على حكم ايران، وطمع القراخانيين الأتراك فى القضاء على الدولة الغزنية نفسها لاخضاع بلاد ايران لحكمهم أن أصبحت ايران مسرحاً لحروب لا مصلحة للشعب الايرانى فيها ، وأصبحت بلاده مطمعاً للمغامرين الغزاة من الأتراك . وقد أثار هذا الوضع ثائرة العناصر الوطنية الايرانية التى نبهت الشعب الايرانى المستكين إلى أمجاده التاريخية ، وضرورة احيائها لنشر الوعى القومى بين الشعب . وفى هذا الجو ظهرت شاهنامة الفردوسى

وكما تأثر القراخانيون بالاسلام تأثروا أيضاً بالثقافة الايرانية التى راجت بينهم واستهوتهم الملاحم الايرانية حتى إنهم أطلقوا على أنفسهم لقب آل افراسياب (١) .

٤ — الغزنيون :

أشرنا فيما سبق إلى هؤلاء الغزنيين وكيف قضوا على الدولة السامانية. وأصل هذه الأسرة البتكين أحد عبيد الأتراك الذين ارتفع شأنهم فى عهد الدولة السامانية .

ويعتبر سبكتكين مؤسس هذه الدولة . وكان هو الآخر عبداً من عبيد البتكين وزوجاً لابنته ، وكان معروفاً بالشجاعة والحزم فاستطاع أن يمد سلطان دولته . وولى وجهه شطر الهند فهزم ملوكها وأنشأ حكومة بيشاور . وكذلك اتجه إلى الناحية الأخرى واستولى على خراسان .

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الذى يعتبر أشهر ملوك هذه الدولة ومن أبرز أعلام التاريخ الإسلامى . وقد نال محمود هذه المكانة لما قام به من الغزوات الكثيرة التى رفعت لواء الاسلام . وتعتبر غزواته فى بلاد الهند من أعظم الغزوات التى قام بها المسلمون فى كفاحهم الطويل لنشر الاسلام .

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٨٥

وقبل أن يبدأ هذه الغزوات التاريخية رأى أن يأمن جانب جيرانه ليتفرغ لمحاربة الهنود وهو مطمئن . وكان جيرانه فى ذلك الوقت السامانيين والايلك خانية (القراخانية) .

أما السامانيون فقد ضعف أمرهم فى ذلك الوقت ضعفاً شديداً ولم يعد بأيديهم سوى اقليم ما وراء النهر بعد أن انتزعت خراسان منهم . وحتى هذا الاقليم ، ما وراء النهر ، لم يدم لهم طويلا لأن ايلك خان استطاع بجيشه أن يزحف إلى بخارى سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م ، وأن يأسر عبد الملك السامانى ويحبسه بأفكند حتى مات . ومع أن الدولة السامانية لم يعد لها شأن أو كيان فقد حرص محمود على أن يفى الناحية الشكلية حقها وطلب موافقة الخليفة على ولايته فجاءته خلعة السلطنة من القادر بالله الخليفة العباسى . وكان محمود يحرص وهو صاحب القوة والغلبة على اظهار الخضوع الشكلى للخليفة العباسى حتى إنه كان يلقب نفسه فى كتبه إلى الخليفة «عبد مولانا أمير المؤمنين وصنيعته محمود بن سبكتكين» (٢) ومنحه الخليفة لقب يمين الدولة وأمين الملة .

أما أيلك خان التركى فقد رأى محمود أن مسالمته أحسن وسيلة للاطمئنان الى جانبه ، فأخذ فى توطيد أواصر الصداقة بينهما . ورأى أن يؤكد ودهما فأرسل إليه وفدا يرجو مصاهرته ويخطب كريمته . وكان لمحمود ما أراد ، وقبل إيلك خان أن يزوجه ابنته . وبهذا نجح محمود فيما أراده وهيأ نفسه بعد ذلك لغزو الهند .

وفى نهاية عهد محمود كانت دولته قد امتدت امتدادا عظيما وشملت خراسان وطبرستان فى الغرب والتركستان وما وراء النهر فى الشمال وإقليم البنجاب فى الشرق والأقليم المعروف فى الوقت الحاضر ببلاد الأفغان فى الوسط .

وبعد أن رجع محمود من إحدى غزواته ضد البويهيين التى استولى

---

(١) النجوم الزاهرة : ٤/٢٥٩ ط دار الكتب ١٩٣٢

فيها على أصفهان مات فى غزنة سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م بالغاً من العمر إحدى وستين سنة إذ كان قد ولد فى سنة ٣٦٠ / ٩٧٠ م .

ولم يمهد الزمان على الدولة الغزنية بمثل محمود . ويذكر البيهقى أن محموداً كان يحس أنه لن يظهر فى أسرته بعد موته من يضارعه (١) ، وكأنه كان يتنبأ بذلك .

ولم يفطن محمود فى حياته إلى الخطر الذى يهدد دولته من وجود الأتراك السلاجقة وازدياد نفوذ رؤسائهم أمثال طغرل بك . ومع أن مسعوداً خليفة محمود كان من الملوك الأكفاء والمقاتلين الشجعان إلا أنه انهزم أمام طغرل فى الموقعة التى دارت بينهما فى دندانقان بين مرو وسرخس ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م .

وكان من أثر هذه الهزيمة التى لحقت مسعوداً أن انتزع منه السلاجقة خراسان وجميع الأقاليم الغربية التابعة للدولة الغزنية . وكانت هذه الهزيمة قاضية على جميع آمال مسعود بل وعليه نفسه إذ قتل بعد ذلك سنة ٤٣٣ هـ ١٠٤١ م .

ويتوالى الملوك من الأسرة الغزنية بعد ذلك ، وتزداد فى نفس الوقت قوة السلاجقة مما دعا بعض الملوك الغزنيين إلى مسالمتهم مثل ابراهيم الغزنى الذى تجاوزت مدة حكمه أربعين عاماً امتازت بالسلم والرخاء . وكان سبب ذلك ما لجأ إليه من تزويج ابنه مسعود الثالث إلى ابنة ملكشاه السلجوقى . واستغل ابراهيم هذه الصلة بينه وبين السلاجقة وانصرف إلى الإصلاح الداخلى . وكذلك كانت الحالى فى عهد مسعود الثالث ، إلا أن العلاقات قد ساءت بعد ذلك بين الطرفين . واستطاع السلاجقة ومن بعدهم الغوريون أن يستولوا على غزنه وأن يقضوا على ملك الغزنيين بها . وفى الحروب التى دارت بين السلطان علاء الدين حسين « جهانسوز » من ملوك

---

(١) تاريخ بيهقى : ص ١١٤ نشر غنى وفياض

الغوريين وبين بهرام شاه الغزنى سقطت غزنة واشتعلت الحرائق فيها حتى صيرتها رماداً ولم يعد لها بعد ذلك مجدها القديم .

وبعد سقوط غزنه وضياع الجزء الغربى من الدولة اتجه الغزنيون إلى مقاطعاتهم فى الشرق ، واتخذوا لاهور عاصمة لهم ، واستمروا يحكمون هناك إلى أن قضى الغوريون على الأسرة الغزنية نهائياً . وكان ذلك فى سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م .

الشاهنامه :

كان نظم الشاهنامه عملا قومياً أراد به الفردوسى أن يلفت أنظار مواطنيه الايرانيين إلى ما يجرى فى بلادهم من سيطرة العناصر الدخيلة كالغزنيين الأتراك . وكان الفردوسى يريد أن يبث النعرة القومية فى الشعب الايرانى ليتحرر من حكم هؤلاء الأجانب ويسترد وطنه الذى ضاعت وحدته وتقسمت أرضه بين مجموعة من الحكام الغاصبين الذين انفرد كل منهم بجزء من الوطن الايرانى القديم حيث كون لنفسه فيه دولة مستقلة على حساب وحدة الوطن الايرانى ، ففى القرن الرابع الذى ولد فيه الفردوسى وشرع ينظم شاهنامته كان قد ظهر فى كل ركن من أركان الدولة الساسانية القديمة دولة جديدة .

وكان عملا جريئاً من الشاعر الايرانى المتعصب «الفردوسى» أن ينظم الشاهنامه التى تمجد الايرانيين وتدعو إلى احياء أمجادهم فى ظل دولة تركية متعصبة . ومن الطبيعى الا يلقى هذا الشاعر الايرانى المتعصب تقديراً كافياً على هذا العمل الأدبى الضخم من سلطان تركى متعصب لا يهمه فى شىء أن يرتفع شأن الايرانيين .

ولا تكتم الشاهنامه نزعة العداء نحو الأتراك بل هى تعكس فى صراحة شعور الايرانيين نحو أعدائهم التقليديين الأتراك .

وتبدو فى الشاهنامه نزعة الاحتقار واضحة نحو التورانيين ؛ فالعنصر

الايرانى طيب وكريم بينما يمثل العنصر التورانى اللؤم والخسة . ومما يمثل هذا الفرق بينهما موقف كودرز الايرانى من بيران التورانى عندما تبارزا : ففى هذه المبارزة عندما بدا أن الغلبة للبطل الايرانى كودرز وهرب من أمامه غريمه التركى بعد أن سقط عن فرسه وكسرت ذراعه ولجأ إلى جبل هناك تحميه رق قلب البطل الايرانى لحال غريمه وتذكر مكانته بين قومه وما انتهى اليه أمره من الهوان بعد هزيمته فعرض عليه أن يؤمنه على حياته إذا طلب الأمان ، ولكن بيران رفض أن يسلم بالهزيمة وأن يطلب الأمان وصمم على أن يقاتل إلى آخر قطرة فى دمه وتحين الفرصة فرمى كودرز بسهم أصابه فى عضده اصابة شديدة . وهكذا أراد البطل الايرانى لغريمه التورانى الحياة بينما تحين هذا الأخير الفرصة ليرديه . ولم يتمالك كودرز نفسه من الغضب وسدد سهمه إلى بيزان فأرداه قتيلا . وهنا تصور لنا الشاهنامه الخلق الايرانى العظيم الذى تحلى به كودرز فانه من فرط غضبه من عدوه أراد أن يجتز رأسه بعد مصرعه ولكنه عدل عن ذلك احتراماً له بل إنه أراد أن يكرمه فى ميتته فرفع علمه عند رأسه ليقى وجهه حرارة الشمس المحرقة فى تلك الصحراء .

وعندما تقدم بيلسم أخو بيران يطلب مبارزة رستم هزىء به البطل الايرانى كيو وأفهمه فى احتقار أن رستم يترفع عن مبارزة تركى مثله (١) .

وفى عهد كيكاوس نرى مثلا آخر على احتقار الايرانيين للتورانيين فعندما تغلب سهراب على قلعة سبيد دز معقل الايرانيين وكان يتولى حراستها هجير قالت أخت هجير لسهراب تسخر منه ان التورانيين لا ينبغى لهم أن يطمعوا فى الزواج من الايرانيين . تريد بذلك أن التورانيين أقل شأناً منهم . وتوجه له حديثها أيضاً فتقول لسهراب انه لا يبدو من نسل التورانيين لما يظهر عليه من البهاء والروعة . كأنها بذلك تعنى أن التورانيين لا يتصفون بهذه الصفات . والحقيقة كان سهراب خليطاً من الدم التورانى والايرانى

---

(١) شاهنامه : ٦٩٧/٣

فهو ابن رستم البطل الايرانى من ابنه ملك سمنجان التورانى . ولعل ما يجرى فى عروقه من الدماء الايرانية هى التى ألقت على مظهره هذه الروعة والجلال

وعندما ذكر كيكاوس افراسياب نعته بأنه من طينة أخرى غير طينة البشر وأن الله سواه خلقاً آخر (١) .

وعندما تقدم بيلسم لقتال رستم صاح بالايرانيين : أين رستم الذى تزعمون فرد عليه كيو : ان رستم يترفع عن مبارزة تركى مثلك (٢)

وفى موضع آخر تصف الشاهنامه التورانيين بالخداع (٣)

وترى الشاهنامه ان الخبث أصيل فى طباع التورانيين وأنهم ورثوا هذا الخبث من جدهم تور (٤) .

ومع كل هذه العداوة التى تنضح بها الشاهنامه نحو الأتراك فإن السلطان محموداً لم يضق صدره بها . وأما ما يتهم به من التقتير على الشاعر فى المكافأة فلم يكن هو فى الحقيقة مسئولا عنه ، فقد كان أعداء الفردوسى له الاتهامات عند السلطان ، وحرضوه عليه ، وهم الذين نقصوا من قيمة المكافأة بعد أن استشارهم فى المبلغ الذى يقدمه له (٥) . ومن الحق أن نقول إن السلطان كان كريماً معه متسامحاً . ولو أنه حاسبه على ما ورد فى الشاهنامه من العداوة للأتراك واثارة الفتن بين العنصر الايرانى والتركى . وتحقير الجنس التركى نقول إنه لو حاسبه على كل هذا حساباً عسيراً يودى به إلى التهلكة لكان معذوراً فيما يفعل . وكان الملوك والسلاطين فيما مضى يأمرون بالقتل لجرائم أقل من هذه بل لهفوة صغيرة أو لمجرد وشاية ليس لها أصل من الحقيقة .

---

(١) شاهنامه : ٥٥٦/٣

(٢) شاهنامه : ٦٩٧/٣

(٣) شاهنامه : ١٢٩٩/٥

(٤) شاهنامه : ١٣١٩/٥

(٥) جهار مقالة : المقالة الثانية ، الحكاية الخامسة

٥ — السلاجقة :

هاجر الأتراك من مواطنهم الأصلية فى شرق آسيا وشمالها (١) هجرات كثيرة إلى غربها . وليس من السهل احصاء هذه الهجرات لكثرتها. ولكن من الممكن أن نميز بين تلك الهجرات الكثيرة هجرتين كبيرتين يفصل بينهما فى الزمان ما يقرب من قرنين . اتجهت الهجرة الأولى إلى غرب آسيا بينما اتجهت الثانية إلى جنوب آسيا . أما الهجرة الأولى فهى هجرة السلاجقة الذين اتجهوا إلى أقصى الغرب من قارة آسيا وكونوا ما يعرف الآن بالأتراك الغربيين . ومن هؤلاء الأتراك الغربيين جاء فيما بعد العثمانيون الذين قضوا على الامبراطورية البيزنطية .

أما الهجرة الكبرى الثانية فكانت هجرة المغول

وكان السلاجقة فى أول أمرهم رعاة لم يتسع موطنهم الأصلى فى تركستان لهم بسبب قلة المرعى وازدحام البلاد فآثروا أن يهاجروا غرباً إلى بلاد ما وراء النهر .

ويقال من بين أسباب هجرة هؤلاء السلاجقة أن أمرأة ملك الترك خافت على زوجها من سلجوق لما رأت من قوة شخصيته وازدياد نفوذه بين عشيرته ، وأوعزت اليه أن يتخلص منه ويقتله . وعندما بلغ سلجوق هذا الخبر جمع عشيرته ورحل معها إلى الغرب . وعندما حلوا فيما وراء

---

(١) يمكن أن نقسم الجنس التركى بصفة عامة إلى ثلاثة أقسام :

(ا) القسم الأول هو الأتراك الشماليون ويشمل القبائل التى تعيش فى سيبيريا أمثال قبائل ياقوت وغيرها .

(ب) القسم الثانى ، القبائل الشرقية ويشمل تلك القبائل التى تعيش فى التركستان الصينية والأزبك وإلى هؤلاء ينسب تتار القرم والقوقاز .

(جـ) القسم الثالث : هو الأتراك الغربيون ويشمل هذا القسم الأتراك العثمانيين والآذر بيجانيه فى فارس ، وقبائل التركمان .

النهر كانوا يشتون فى نور احدى ضواحى بخارى ، يصيفون فى الصغد بالقرب من شمرقند (١) .

وينسب هؤلاء السلاجقة إلى زعيمهم سلجوق (٢) .

وعندما بلغوا ما وراء النهر أرادوا أن يتجهوا بعد ذلك إلى خراسان التى كانت خاضعـــة للسلطان محمود الغزنى ، فكان عليهم أن يحصلوا على اذن من السلطان بالإقامة فى ممتلكاته . ويروى الكرديزى كيف سمح لهم السلطان بذلك ، فقد أرسلوا اليه وفداً من رؤسائهم وقوادهم يتضرعون اليه أن ينقذهم مما حاق بهم فى بلادهم من الظلم والأذى . وأردفوا بعد ذلك يغرونه كى يسمح لهم بالاقامة فى خراسان فذكروا أنهم أربعة آلاف أسرة فاذا سمح لهم السلطان بعبور النهر ليقيموا فى خراسان فسيجد منهم خيراً كثيراً وعوناً عظيما إذ ينضمون إلى جنده ويقاتلون تحت رايته . وقد رق قلب محمود لهم وطيب خاطرهم وسمح لهم بعبور النهر . ولم يكن محمود بعيد النظر فيما فعل . وكان أمير طوس أبو الحارث أرسلان الجاذب أبعد منه نظراً فقد رأى أن ما فعله السلطان كان خطأ . ولهذا اقترح عليه أن يكل السلطان أمرهم اليه حتى يبيدهم أو يقلم أظفارهم على أقل تقدير فلا يخشى بأسهم بعد ذلك . ولكن السلطان محمود استنكر هذا الاقتراح الذى يدل على قسوة القلب ولم يوافق عليه ، فحذره أمير طوس وخوفه من سوء العاقبة (٣) . وقد أثبتت الأيام فيما بعد صدق فراسة هذا الأمير وحسن تقديره للأمور لأن القضاء على دولة الغزنيين بعد ذلك تم على أيدى هؤلاء السلاجقة .

ويصف لنا البيهقى بالتفصيل الحرب التى دارت بين السلطان مسعود

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ، الترجمة العربية لابراهيم الشواربى ، عبد النعيم حسنين ، فؤاد الصياد ص ١٤٥

(٢) يذكر بارتولد ان سلجوق فى أصلها ليست اسم علم ولكنها تحريف كلمة سوباشى بمعنى قائد الجيش ص ١٠٠ من تاريخ الترك فى آسيا الوسطى .

(٣) تاريخ كرديزى : ص ٦٧ ط تهران

الغزنى والسلاجقة فى مرو (دندانقان) حيث انتصر السلاجقة وقضوا بذلك على الدولة الغزنية . ويذكر البيهقى أن السلطان مسعوداً كان قد رتب خطته على أن يطوق السلاجقة وأن يقطع عليهم خط الرجعة . ولكن مسعوداً ، كما يبدو من رواية البيهقى ، لم يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه فى هذه الحرب حق قدرها لأنه نام بعد العشاء نوماً عميقاً وهو على فيله . ولم يجرؤ الفيالة على الإسراع بالفيلة خوفاً من إيقاظ السلطان وحرصاً على راحته . وظل السلطان يغط فى نومه حتى الفجر فتأخر جيشه عن اللحاق بالسلاجقة لحصارهم وتطويقهم . وكانت هذه فرصة عظيمة لطغرل الذى كان قد قد أدرك خطة السلطان . وكان عامل الوقت شديد الأهمية والخطورة بالنسبة للسلاجقة فأسرعوا بالهروب لينجوا من التطويق . وكانوا فى هروبهم يضطرون إلى التخفف من أحمالهم وأمتعتهم توخياً للسرعة وطلباً للنجاة . وعندما وصل السلطان بجيشه وجدهم قد رحلوا وفشلت بذلك الخطة التى رتبها نتيجة لتأخره عن اللحاق بهم بسبب غلبة النوم عليه . وقد اشتد به الغضب وقتذاك وألقى اللوم على رجاله .

وعلم السلطان بعد ذلك أن السلاجقة بلغوا باورد فجد فى أثرهم ولكنه بعد رحلة شاقة لم يظفر بهم لأنهم كانوا قد رحلوا عنها قبل وصوله . ولو أن السلطان تابع سيره لكان من الممكن أن يلحق بهم ولكنه تعطل فترة فى باورد . وكان هذا الوقت الضائع فى باورد سبباً فى تمكين السلاجقة من الفرار وتعويق السلطان مسعود عن اللحاق بهم . ويتابع البيهقى وصف هذه المطاردة المثيرة بين جيش السلطان مسعود وجيش السلاجقة بقيادة طغرل فيذكر أن الأعداء كانوا فى خلال هذه المطاردة فى غاية من الفزع وشدة من الجهد والتعب حتى إن طغرل كان ينام وهو فى كامل عدته ولباسه . ولكن السلطان كما أشرنا من قبل لم يكن يقدر أهمية عامل الزمن فى التعجيل بالقضاء على أعدائه . والدليل على هذا أنه لم يكن يواصل مطاردة العدو المنهك المذعور بل كان يتلبث فى كل بلدة يصل اليها . ففى نسا مثلا

أقام بضعة أيام يشرب ويستمتع بجمال تلك الناحية (١) . ثم اتجه بعد ذلك عن طريق باورد واستوا إلى نيشابور حيث استقبله هناك قضاتها وعلماؤها وفقهاؤها . ولم تكن نيشابور فى هذه المرة كما عهدها من قبل فقد عمها الخراب واشتد فيها الغلاء حتى عز القوت وهلك الناس . ومن أمثلة استهتاره بخطورة المهمة ، وإضاعة الوقت ما كان من احتفاله فى مدينة نيشابور بعيـــــد النوروز يوم الخميس الثامن عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٣١ هـ (٢) . ومن نيشابور اتجه السلطان إلى طوس ونزل فى الصحراء على مفترق طرق سرخس ونسا وباورد واستوا ونيشابور . وفى نفس هذا الوقت كان الأعداء يتحركون . وسار السلطان متجهاً إلى سرخس حتى إذا بلغها ألفاها خراباً ولم يجد بها مظهراً من مظاهر الحياة فلا ماء ولا زرع ولا سكان . وضاقت الحال بالسلطان فنصحه رجاله بالذهاب إلى هراة حيث يتوفر العلف ثم يقصدون بعد ذلك إلى العدو . ولكن السلطان الذى كثر تهاونه فيما سبق لم يقبل النصح وأصر على الذهاب إلى مرو حيث يقيم العدو لأنه رغب فى أن يعجل بقتاله ليتفرغ نهائياً من أمره . وتظاهر رجاله بقبول الفكرة ولكنهم رأوا أن يرسلوا إليه الرسل مرة أخرى لعله يعدل ، ولكن السلطان سب الرسل وأهانهم وصمم على موقفه . وكان يتهم قادته ورؤساء جيشه بالخور والضعف أمام السلاجقة . وكان الطريق إلى مرو محفوفاً بالمخاطر بسبب القحط وجفاف الأرض ، ومع ذلك فقد جاءهم أمر صريح من السلطان بعد صلاة العصر بالاستعداد للسير فى اليوم التالى إلى مرو . وجاء اليوم التالى وكان الثانى من رمضان فتحرك الجيش فى طريق مرو . ولكن أسباب الهزيمة كانت قد تجمعت على الجيش من أول الأمر ، فالجو قائظ ، والأرض مجدبة لاماء ولا زرع ، والجنود مرهقون بسبب الصوم ، والدواب هزيلة من الجوع . وكان الجند يتوقعون أن يعود السلطان من حيث أتى عندما يرى جيشه على هذه الحالة السيئة . ولكنه

---

(١) تاريخ بيهقى : ص ٦٠٧ نشر غنى و فياض ط تهران

(٢) نفس المصدر : ص ٦١١

ركب رأسه واستمر فى سيره . وعندما تلاقى الجيشان فى يوم الخميس الثامن من رمضان كان اليأس قد غلب على جيش السلطان . وفى المناوشات التى دارت بين الجيش أدرك السلاجقة مدى الضعف واليأس الذى يعانيه جيش السلطان فازدادوا جرأة وإقداماً بينما كان جيش مسعود يزداد تخاذلا ويأساً وعزوفاً عن القتال . ومع أن السلطان هجم على العدو بشدة وقوة إلا أنه لم يجد عوناً من جنده الذين انقسموا على أنفسهم ولم يكن لهم من هم سوى طلب النجاة . هذا بالإضافة إلى أن غلمان السلطان خانوه فى القتال ورأوا من الأصلح لهم أن ينضموا إلى صفوف أعدائه . وعند حصن دندانقان كان نظام الجيش كله قد اضطرب واختل والتفت الأعداء عليه من كل جانب يقتلون وينهبون . وقد كانت الهزيمة فى النهاية بالسلطان وغنم السلاجقة فى تلك الحرب غنائم طائلة (١) .

وبعد هذه الهزيمة سقطت خراسان كلها فى أيدى السلاجقة وبدأ شأن الغزنيين فى الأفول .

وبعد أن استطاع طغرل بك القضاء على ممتلكات الدولة الغزنية فى الجانب الغربى من النهر (خراسان) وطردهم منه الى ممتلكاتهم فى الهند وجه همه للقضاء على أسرة إيرانية كانت تسيطر على أجزاء كبيرة من بلاد إيران هى أسرة البويهيين (٢) . وبسقوط هؤلاء البويهيين خلصت جميع الأراضى الايرانية للأتراك السلاجقة .

ويبالغ الراوندى فى وصف طغرل بك وصفاء عقيدته وشدة تدينه وحرصه على الدين .

وقد فعل طغرل عقب استيلائه على السلطة ذلك الإجراء التقليدى

---

(١) تاريخ بيهقى : ص ٦٠٢ نشر غنى وفياض والترجمة العربية للخشاب ونشأت ص ٦٦٣

(٢) بعض المؤرخين ينسبون البويهيين إلى أصل ديلمى . وقد قسم البويهيون إقليم فارس والعراق فيما بينهم ، كما تولوا الحكم فى مناطق أخرى من إيران مثل كرمان وري و همذان وأصفهان .

الذى كان يفعله رؤساء تلك الدول الإسلامية من إظهار الخضوع لخليفة بغداد باعتباره رمز السلطة الدينية فى العالم الإسلامى كله .

وبينما كان طغرل بك يقضى على دولة البويهيين ويستولى على ممتلكاتهم توفى الخليفة القادر بالله سنة ٤٢٢ هـ وبويع بعده ابنه الخليفة القائم بأمر الله . وكان طبيعياً أن يستنجد الخليفة القائم بطغرلبك لانقاذه من شر البساسيرى الذى كان قد استولى على السلطة فى بغداد . وظل طغرلبك يلاحقه حتى قتله.

وقد قسم السلاجقة بلاد إيران فيما بينهم فنال جغرى بك، أكبر الأخوة إقليم خراسان وجعل من مرو عاصمة له . وخص «موسى كلان» ولاية بست وهراة وسجستان . وتولى قاورد أكبر أبناء جغرى بك أمر الطبسين وكرمان . أما طغرل بك نفسه فقد جعل عاصمته فى الرى .

وأدى طغرلبك للخليفة العباسى خدمات كبرى إذ خلصه من شر البويهيين الذين استبدوا بالأمر وجعلوا الخليفة لعبة فى أيديهم كما خلصه أيضاً من شر البساسيرى وقضى على فتنته . ولم يكن ذلك كله بلا مقابل فقد انتقلت السلطة فى العالم الاسلامى إلى السلاجقة ولم تعد إلى الخليفة .

وعندما توفى طغرلبك لم يكن له وريث ذكر يرث السلطنة من بعده فتولاها ابن أخيه جغرى بك وهو ألب أرسلان . وهكذا فى سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م أصبح ألب أرسلان سلطاناً على دولة تمتد من نهر جيحون حتى الفرات ومن بحر الخزر حتى الخليج الفارسى . و كان وزيره نظام الملك علماً من أعلام السياسة بالمشرق ، وله دور كبير فى توجيه سياسة الدولة السلجوقية . وقد وزر لألب أرسلان ولملكشاه من بعده . وظل يباشر مهام الوزارة ثلاثين عاماً .

ونظام الملك إيرانى الأصل ولد فى طوس سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ونال من التعليم قدراً كبيراً جعله أهلا لتوجيه سياسة تلك الدولة العظيمة . ومع أنه إيرانى إلا أنه أخلص فى خدمة الدولة السلجوقية التركية . وكان

هو الآخر سنى المذهب وعدواً لدوداً للشيعة والاسماعيلية منهم بوجه خاص . ويبدو من هذا أن نظام الملك لم يكن يشعر بقوميته الإيرانية . ولا تعليل لذلك عندنا إلا استغراقه فى الناحية الدينية استغراقاً وجه كل حماسه وهمته لخدمة الدين الإسلامى الذى يجمع بين المسلمين على اختلاف أوطانهم وقومياتهم . فكانت الرابطة الدينية عنده تغلب على النزعة القومية على عكس ما رأيناه عند الفردوسى مثلا . وبسبب هذه النزعة الدينية الغالبة عليه يمكن أن نفسر إخلاصه للأتراك السلاجقة الذين قاموا هم أيضاً بدور كبير فى خدمة الإسلام ، كما يمكن أن نفهم سر عداوته للملحدين والكفار وأصحاب البدع الذين يريدون هدم الإسلام وهدم الدولة الإسلامية .

وأعتقد أن موقف نظام الملك الإيرانى من تدعيم أركان الدولة السلجوقية التركية واهتمامه بأمر الدين وحده وإهماله النزعة القومية قد ضايق العنصر الإيرانى ودفعه إلى التخلص منه . وفى رأيى أن مقتل نظام الملك كان مظهر لسخط العنصر الإيرانى على الأتراك الذين كانوا يحتلون بلاده وعلى الذين عاونوهم على هذا الاحتلال ووطدوا لهم الحكم مثل نظام الملك . ولما كان الشعب الإيرانى فى ذلك الوقت عاجزاً عن الانتقام الإيجابى المباشر من هؤلاء الأتراك أو قتالهم وطردهم من البلاد لضعفه فقد لجأ إلى هذه الطريقة السلبية للتخلص من أعوانهم .

فالإيرانيون عامة كرهوا هذا الحكم التركى باعتباره حكماً دخيلا يقوم على الاحتلال والمارقون منهم بصفة خاصة عن دين الاسلام كرهوا أيضاً هذا الحكم التركى الذى يوطد أركان الإسلام فى البلاد . وسعى الفريقان ، الوطنيون والمارقون عن الدين ، للتخلص من هذا الحكم وأصبحت بذلك الدولة السلجوقية الحاكمة هدفاً يراد تقويضه من الناحيتين السياسية القومية والدينية . وأصبح نظام الملك هو الآخر عدواً لدوداً للفريقين .

ومما يؤيد رأينا فى أن قتل نظام الملك كان مظهراً من مظاهر الصراع

القومى والدينى بين الأتراك الحاكمين والإيرانيين المغلوبين على أمرهم ما يأتى :

١ – إن قاتل نظام الملك كان إيرانياً متحمساً ضللته طائفة الإسماعيلية ودفعته إلى ارتكاب هذه الجريمة .

٢ – بين نظام الملك والإسماعيلية عداوة سافرة فهو سنى وهم شيعة وكان نظام الملك يكرههم ويضيق عليهم ويتهمهم بالمروق عن الدين . والإسماعيلية باعتبارهم شيعة يميلون إلى الفرس . ونظام الملك لا يؤمن بالنزعة القومية الفارسية ويعادى الشيعة . وليس هناك ما يمنع من وجهة نظر هؤلاء الشيعة الفرسيين من أن يعملوا على التخلص من هذا الرجل الذى يدير شئون الدولة ويقف عقبة فى سبيل سيادة العنصر الإيرانى والمذهب الشيعى .

وقد ظهر هؤلاء الإسماعيلية عندما تأسست الدولة الفاطمية . وكان هؤلاء الفاطميون يدعون نسبهم إلى السيدة فاطمة رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا النسب لم يسلم من الطعن فى صحته . وقد أعلن خصوم هؤلاء الفاطميين أنهم من ذرية الملحد الفارسى عبد الله بن ميمون القداح . وإذا صح هذا النسب فمعناه أن الفاطميين من سلالة الفرس . ومن هنا نفهم لماذا كان يحرص هؤلاء الفاطميون أو الإسماعيلية على القضاء على نظام الملك. صحيح أن نظام الملك قد لا يكون مقصوداً لذاته ولكن الواضح أنه كان ركن هذه الدولة التركية وقد يكون فى القضاء عليه زعزعة لبنيانها .

٣ – كان نظام الملك يقاوم الدعوات الهدامة التى بدأت تنتشر فى بلاده . وكان يعتبر دعوة هؤلاء الإسماعيلية أو الحشاشين من تلك الدعوات التى يجب القضاء عليها . وكان اهتمام الدولة الفاطمية بنشر دعوتها فى البلاد الإسلامية – وخاصة فى إيران – دليلا على رغبتها فى تقويض الاتجاه المذهبى السائد فى إيران أيام السلاجقة ثم تقويض النظام كله فيما بعد بالقضاء على الحكم التركى وإحلال الحكم الإيرانى محله . ولم يخف على الفاطميين خطورة نظام الملك على اتجاهاتهم المذهبية والسياسية . وكان الرجل يقاومهم

بكل سلاح إيماناً منه بأنهم يفسدون فى الدين والأرض . وعلى العموم كان يشكل خطراً كبيراً عليهم .

وفى «سياست نامه» فصول كثيرة يهاجم فيها نظام الملك هؤلاء المفسدين . ففى الفصل الثالث والأربعين يكشف أحوال هؤلاء المفسدين الذين هم أعداء الملك والاسلام (١) . ويصفهم بأنهم كالكلاب التى تخرج من مخابئها إذا عرض للدولة عارض من الضعف . وهم يخرجون على الدولة فى ذلك الوقت . ويدعون التشيع وتزداد قوتهم . وهم لا يتركون وسيلة من وسائل الإفساد إلا اتبعوها من قبيل القيل والقال وإحداث البدع . وهم يدعون الإسلام بالقول ويفعلون أفعال الكفار . وباطنهم يخالف ظاهرهم . وقولهم يخالف عملهم . وليس هناك عدو أخبث منهم ولا أسلم منهم على دين محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم . ويذكر نظام الملك أنه يرغب فى هذا الفصل من كتابه أن يبين للسلطان كم خرجوا على الدولة وكم سفكوا وكم أفسدوا ولكنه لن يستطيع أن يفعل ذلك بالتفصيل . ولهذا فهو يكتفى بالقليل منه حتى يعلم السلطان أمرهم من بدايته إلى نهايته .

ويرد نظام الملك أصول هذه الدعوات الهدامة إلى المذاهب الإيرانية القديمة كمذهب مزدك . ويعقد فصلا خاصاً عن خروج مزدك ويشرح مذهبه وكيف كان مقتله على يد أنوشيروان العادل . وغرضه من سرد قصة مزدك وشرح مذهبه أن يعلم الناس والسلطان الأصول الخبيثة التى تنطوى عليها دعوتهم حتى يتعظ بها العقلاء ويتذكروها (٢) .

وفى الفصل الخامس والأربعين يتحدث نظام الملك عن خروج سنباذكير على المسلمين من نيشابور إلى الرى وفتنته (٣) .

---

(١) سياست نامه : ص ١٦٤ ط شيفر .

(٢) نفس المصدر : ص ١٦٦

(٣) نفس المصدر : ص ١٨٢

وفى الفصل السادس والأربعين يتحدث نظام الملك عن خروج الباطنية فى خراسان وما وراء النهر (١) .

وفى الفصل السابع والأربعين يتعرض نظام الملك لخروج الباطنية فى خراسان وما وراء النهر (٢) . ويختم هذا الفصل بالإشارة إلى أن هؤلاء الباطنية ومن شاكلهم من الخرمية كانوا يسعون إلى القضاء على الإسلام . ويذكر أن هؤلاء الملحدين كانوا يتظاهرون بمحبة آل الرسول عليه السلام حتى يصيدوا الناس ويجذبوهم إلى مبادئهم الهدامة فإذا قوى أمرهم وطووا الناس تحت جناحهم بذلوا جهدهم حتى يقضوا على الشريعة فهم فى الحقيقة أعداء آل الرسول ، وليس عندهم رحمة على أحد وليس هناك قوم من الكافرين أقسى قلوباً منهم .

ومن قراءة هذه الفصول يتضح أن نظام الملك كان يتهم هؤلاء الإسماعيلية صراحة بالكفر والمروق عن الدين وإفساد الناس والمجتمع وأنهم إنما كانوا يدعون التشيع ليتقربوا به إلى الناس ويضمروهم إلى صفوفهم بينما هم فى الحقيقة يخترن مذاهب خبيثة ترجع فى أصولها إلى تلك المذاهب الهدامة التى عرفها المجتمع الإيرانى قبل الإسلام وبعده كالمزدكية والخرمية والباطنية وغيرها .

ومما كتبه نظام الملك ما يدل على أنه فهم هؤلاء القوم على حقيقتهم وكشف ألاعيبهم أمام الناس والسلطان . وكان هذا فى نظر هؤلاء الإسماعيلية سبباً كافياً للقضاء عليه والخلاص منه .

٤ — كان الحسن بن الصباح الإيرانى أحد دعاة الإسماعيلية البارزين . وقد رحل من إيران سراً إلى مصر حيث اتصل بالخليفة الفاطمى المستنصر بالله الذى كلفه بنشر الدعوة فى إيران . وبدأ الحسن أولا يعمل وفق الخطط المرسوم له من قبل الفاطميين فى مصر حتى إذا قوى أمره فى إيران ومات

---

(١) نفس المصدر : ص ١٨٣

(٢) نفس المصدر : ص ١٨٧

الخليفة المستنصر انفصل عن مركز الدعوة فى مصر وبدأ يعمل لحسابه الخاص . ووضح عند ذلك أن المسألة لم تكن مجرد خلاف مذهبى بين السنة والشيعة ولكنها كانت مسألة سياسية أبعد من هذا .

٥ — يشير براون فى حديثه عن مذهب الاسماعيلية إلى أنهم يهتمون بالعدد سبعة (١) ، فهناك مثلا سبع فترات يأتى فى كل فترة منها نبى . وكل نبى من هؤلاء الأنبياء السبعة يعقبه سبعة أئمة . وكان على رأس الفترة السادسة النبى محمد عليه الصلاة والسلام . أما الفترة السابعة فتبدأ بالامام السابع إسماعيل . ويتألف الكون عندهم من مراتب الوجود السبع . وفى نظرهم أن المريد لا يستطيع أن يصل إلى كنه مذهبهم قبل أن يمر بالمقامات السبعة .

ويذكر براون أن الداعى كان يجذب اهتمام العضو الجديد بمجموعة من الأسئلة تقوم على العدد سبعة كأن يسأله مثلا لماذا خلق الله الكون فى سبعة أيام ، ولماذا جعل السموات سبعا ، والأرضين سبعاً . والبحار سبعة . ولماذا جعل الله فاتحة الكتاب تتألف من سبع آيات ، ولماذا خلق الله العمود الفقرى فى الانسان من فقرات سبع فى العنق ، واثنى عشرة فى الظهر (يشيرون بذلك إلى أن الفقرات السبع فى العنق كناية عن الأئمة السبعة الذين يأتون على رأس كل فترة من الفترات كما سبق ، ويساعدهم النقباء وعددهم اثنا عشر) (٢) .

واهتمام الإسماعيلية بالعدد سبعة يمثل اهتمام الإيرانيين القدماء به . صحيح أن المسلمين يهتمون أيضاً بهذا العدد ولكنه كان معروفاً قبل هذا فى المجتمع الإيرانى القديم . ومن هنا يسهل أن نستنتج أن اهتمام الإسماعيلية بالعدد سبعة كان إحياء لعادة إيرانية قديمة .

---

(١) Browue : A Literary History of Persia p. 197 vol. II
والترجمة العربية للشواربى ص ٢٤٣

(٢) نفس المصدر ص١٩٨ والترجمة العربية ص ٢٤٤

٦ ـ فإذا انتقلنا إلى داعية إسماعيلي آخر هو ناصر خسرو وجدنا في تاريخه ودعوته ما يؤيد كل ما أشرنا اليه .

ولد ناصر خسرو في ضواحي بلخ وعاش جانباً من حياته في عهد الدولة الغزنية ثم عاصر الدولة السلجوقية واشتغل مدة كاتباً للديوان السلجوقي ، وقام ناصر خسرو بعدد من الرحلات وزار بلاداً كثيرة من بينها مصر حيث التقى بأساتذة المذهب الإسماعيلي فلقنوه أصول هذا المذهب ، فلما عاد بعد ذلك إلى بلخ أخذ يبث هذه الدعوة الإسماعيلية هناك فلقي مقاومة شديدة من الدولة السلجوقية اضطرته إلى الهروب والاختفاء . وكانت عقيدته موضع تجريح وطعن . ولا جدال في أن هذا التجريح والطعن كان لهما ما يبررهما من آراء ناصر خسرو نفسه ومن بعض أشعاره الإلحادية . وفضلا عن هذا فانه كان من المؤمنين بمذهب التأويل . وكتبه المختلفة مثل «زاد المسافرين» و «وجه دين» تتضح بتأييد عقائد الباطنيين . وهي عقائد تقوم على الزيغ وإفساد الدين . كما أن الشاعر يبالغ في الثناء على علي وشيعته والأئمة الفاطميين وعلى رأسهم الخليفة المستنصر كما يثني على سلمان الفارسي والمختار .

وظاهر من هذا أن ناصر خسرو كان إيرانياً متعصباً . ولاشك في أن من كان مثله على هذه الدرجة من التعصب القومي يميل إلى الدعوات التي أهدافه القومية وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف لم يجد مانعاً من تنكب طريق الدين الصحيح .

ولم يكن نظام الملك متجنياً على هؤلاء . فهناك من معاصري هذه الأحداث عبد القاهر البغدادي المتوفى ٤٢٩ هـ صاحب الفرق بين الفرق . وهو يحدثنا في مؤلفه هذا عن أن «ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس» (١) . ويذكر البغدادي في موضع آخر أن أصحاب التواريخ يقررون «أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية

---

(١) عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٨٢

كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين إلى دين اسلافهم ولم يجسروا على إظهاره خوفاً من سيوف المسلمين ، فوضع الأحمار منهم أساساً من قبلها منهم صار فى الباطن إلى تفضيل أديان المجوس وتأولوا آيات القرآن وسنن النبى عليه السلام على موافقة أسسهم » (١) ويذكر فى موضع ثالث أن أكثر المتكلمين فى بيان أغراض الباطنية قد ذهبوا إلى «أن غرض الباطنية الدعوة إلى دين المجوس بالتأويلات التى يتأولون عليها القرآن والسنة واستدلوا على ذلك بأن زعيمهم الأول ميمون بن ديصان كان مجوسياً من سبى الأهواز ودعا ابنه عبد الله بن ميمون الناس إلى دين أبيه » (٢) ويضرب أمثلة لتأويلاتهم كل ركن من أركان الشريعة تأويلا بورث تضاليلا حين يزعمون أن معنى الصلاة موالاة إمامهم ، والحج زيارته وإدمان خدمته ، والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام .. الخ (٣) .

ويأتى أبو حامد الغزالى — وهو الآخر من معاصرى هذه الأحداث — المتوفى فى سنة ٥٠٥ هـ فيكشف كثيراً من أساليب هؤلاء الباطنية فى رسالته «فضائح الباطنية» .

يتحدث الغزالى عن بيان الباعث للباطنية على نصب هذه الدعوة وإفاضة هذه البدعة فيقول إن الذين يدعون هذه الدعوة الباطنية لا ينتسبون إلى ملة وإن غاية هذه الدعوة « الانسلال من الدين كانسلال الشعرة من العجين » ، وإن القائمين بأمرها طائفة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملحدين (٤)

وفى موضع آخر يذكر الغزالى أن من حيل هؤلاء الباطنية لاستدراج الناس حيلة التشكيك . وتقوم هذه الحيلة على تشكيك الناس فى دينهم ، وإثارة الأسئلة المحيرة فى شئون الدين ليتزعزع إيمانهم ومعتقدهم . ومن أمثلة ما يفعلونه فى هذا الباب — باب التشكيك — أن يسأل الداعى مثلا ما بال

---

(١) نفس المصدر ص ٢٨٥

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٣

(٣) نفس المصدر .

(٤) فضائح الباطنية : ص ١٨ نشر وزارة الثقافة

الحائض تقضي الصوم دون الصلاة؟ ما بال الاغتسال يجب من المني الطاهر ولا يجب من البول النجس ؟ ما بال أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة ؟ .. الخ هذه الأسئلة المحيرة . ويقول الغزالي «ولا يزال يورد عليه هذا الجنس حتى يشككه» (١) .

وفي موضع ثالث يبين الغزالي السبب في رواج حيلة هؤلاء الباطنية وانتشار دعوتهم مع ركاكة حجتهم وفساد طريقتهم (٢) فيقول إن الذين يستجيبون لهؤلاء الباطنية ثمانية أصناف :

الصنف الأول : طائفة ضعاف العقول

الصنف الثاني : طائفة الموتورين الذين جاء الإسلام فقضى على أمجادهم القديمة فزال عنهم المجد وزالت عنهم الدولة كأبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس . فهؤلاء موتورون اشتعلت نيران الحقد في قلوبهم فهم ينتهزون كل فرصة ويتبعون كل وسيلة للانتقام وطلب الثأر .

الصنف الثالث : طائفة الطموحين الذين يتطلعون إلى المجد والاستعلاء فهؤلاء يسارعون إلى اعتناق كل مذهب إذا وعدوا بتحقق آمالهم .

الصنف الرابع : طائفة الذين يحبون أن يتميزوا على سائر الناس فيتبعون الضلالات ويروجون الأمور التي تخالف ما عليه آراء الناس ليعرف اسمهم وينشر ذكرهم .

الصنف الخامس : طائفة الذين يسلكون طريق النظر وإعمال الفكر ولكنهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة النضج والاستقلال في الرأي .

الصنف السادس : طائفة نشأت بين الشيعة والروافض فهم يعتقدون بحكم نشأتهم ما يعتقده هؤلاء .

---

(١) نفس المصدر : ص ٢٦

(٢) نفس المصدر : ص ٣٣

الصنف السابع : طائفة الملحدين من الفلاسفة والثنوية والمتحيرة .

الصنف الثامن : طائفة المنحلين وأرباب الشهوات . وهؤلاء يثقل عليهم القيام بالفروض والتكاليف ، ولذلك فهم يروجون للباطنية وغيرها من المذاهب الهدامة التى ترفع عنهم التكاليف وتعفيهم من أداء الفروض وتيسر لهم سبيل الشهوة واللذة .

وهناك مؤلف ثالث جاء بعد البغدادى والغزالى هو الشهرستانى صاحب الملل والنحل المتوفى ٥٤٨هـ . وهو يتحدث عنهم بما لايخرج عما ذكرنا . ويذكر أن أشهر ألقاب هؤلاء الإسماعيلية هو الباطنية . ويشرح سبب ذلك فيقول « إنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا» (١) كما أنهم يسمون بالعراق الباطنية والقرامطة والمزدكية وبخراسان التعليمية والملحدة . وهذا يبين بوضوح الأصول التى يستند إليها هؤلاء الإسماعيلية أو الباطنية فى دعاواهم . وهى أصول تخرج بصاحبها عن الاسلام وترده إلى المعتقدات المجوسية القديمة .

وجاء بعد ألب أرسلان السلطان ملكشاه . وكان لهذا السلطان أعمال حربية مجيدة . ولكن إصلاحاته فى ميدان السلم فاقتها . وقد قضى السنوات الخمس الأولى من حكمه فى حروب ثم دانت له البلاد فقضى ما بقى من حكمه وهو خمسة عشر عاماً فى الإصلاح ورعاية العلوم والآداب مما جعل عهده من أزهى العهود فى تاريخ العالم الإسلامى . بنى ملكشاه فى سنة ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م المرصد الذى كان يشتغل فيه العالم الفلكى والشاعر المعروف عمر الخيام . وانتهت نتيجة أبحاثه الفلكية إلى وضع التقويم المعروف بالتقويم الجلالى . وعرف عن ملكشاه أنه كان سلطاناً عادلا أسبغ عدله وحمايته على جميع رعاياه حتى لم يبق فى عهده مظلوم واحد . ويقول الراوندى إن أصحاب الظلامات كانوا يتقدمون بظلاماتهم إلى الملك نفسه (٢) .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ١٩٢/١ تحقيق سيد كيلانى ١٩٦١

(٢) راحة الصدور : الترجمة العربية ص ٢٠٥

واتخذ ملكشاه أصفهان عاصمة لملكه . ونشطت فى عهده حركة البناء والتعمير . كما أنه أنشأ كثيراً من الحدائق أمثال (باغ كاران) و(بيت الماء) و(باغ أحمد سياه) و(باغ دشت كور) وغيرها (١) .

ولم يكن فى تاريخ ملكشاه ما يعاب سوى غدره بوزيره المخلص الأمين نظام الملك الذى عزله بناء على وشايات كاذبة ، ثم لقى مصرعه بعد وقت قصير من عزله . ولم يعش ملكشاه بعد نظام الملك سوى شهر واحد وتوفى فى سن الثامنة والثلاثين . وفى هذا المعنى يقول الشاعر المعزى ما معناه : «فى شهر واحد صعد إلى الفردوس الوزير الشيخ ، ولحقه فى الشهر التالى الملك الشاب . فواحسرتاه على مثل ذلك الملك ومثل هذا الوزير . فانظر إلى قهر الله وتأمل عجز السلطان» (٢) .

ومن الشخصيات البارزة فى عهد السلاجقة السلطان سنجر (٥١١ – ٥٥٢هـ/ ١١١٧ – ١١٥٧ م) . وفى عهد هذا السلطان اتسعت رقعة الدولة اتساعاً كبيراً فامتدت من حدود كاشغر إلى أقصى بلاد اليمن ومكة والطائف ومكران وعمان وآذربيجان إلى حدود الروم (٣) . وحكم هذا السلطان مدة طويلة بلغت أربعين سنة فضلا عن عشرين سنة سابقة قضاها حاكماً على خراسان ويقول الراوندى إن خراسان فى عهده أصبحت كعبة القصاد (٤) . ويصفه الراوندى وصفاً دقيقاً فيقول إنه كان ساذجاً فى الصغير من الأمور ولكنه كان قوى العزيمة بعيد النظر فى الجسيم منها (٥) .

---

(١) نفس المصدر : ص ٢٠٦

(٢) رفت در يك مه بفردوس برين دستور پير
شاه برنا در پى أو رفت در ماه دكر
أى دريغا آبخشان شاهى ووزيرى اينچنين
قهر يزدانى به بين وعجز سلطانى نكر

(٣) راحة الصدور : ص ٢٦٠

(٤) نفس المصدر والصفحة

(٥) نفس المصدر : ص ٢٥٦

ويبالغ الراوندى فى الحديث عن شجاعته ومقدرته فى القتال فيقول إنه منذ أن كان حاكماً على خراسان من قبل أخيه بركيا روق إلى أن قضى فى الملك أربعين سنة لم يتعرض قط لهزيمة (١) . ولكن الواقع يخالف هذا ، ففى سنة ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠ م انهزم السلطان سنجر أمام أتسز الذى ملك خوارزم وأعلن هناك استقلاله التام . وفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م لقى أشنع هزائمه على يد قبائل تركية أخرى تنحدر من نفس الأصل الذى انحدر منه السلاجقة (الأتراك الغز) وهى قبائل القراختائين . وهنا يعيد التاريخ نفسه فان القراختائين عندما عبروا النهر فى سبيل البحث عن المراعى حصلوا من سنجر على إذن بالإقامة فى ممتلكاته فى ختلان ، صغانيان ، نواحى بلخ تماماً كما فعل السلاجقة أنفسهم مع السلطان محمود الغزنى . ولكنهم بعد أن توطنوا فى تلك الأنحاء شرعوا يثيرون المتاعب فى وجه حاكم بلخ الذى شكاهم إلى السلطان وطلب إخضاعهم . وما أن سمع السلطان بهذا العصيان الذى تنشره قبائل الغز فى تلك الأنحاء حتى أسرع إلى تأديبهم ولكنه منى بالهزيمة فى سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣ م ووقع أسيراً فى أيديهم . وشرع الغز يغيرون على العاصمة نفسها وقد أدهشهم ما رأوا فى ضواحى مرو من المراعى الغنية والخيرات فأقبلوا فى شراهة يسرقون وينهبون كل ما تقع عليه عيونهم . ولم تسلم خراسان من سلبهم وتدميرهم . وتحولت بلادها خراباً . وعندما استطاع سنجر أن ينجو من الأسر هاله ما رآه فى عاصمته وفى غيرها من بلاده من التخريب والدمار فمات كمداً بعد أشهر قليلة .

وهكذا بدأت الدولة السلجوقية تلقى نهايتها على يد قوتين : قوة الأتراك الغز فى الشرق ، وقوة الخوارزمشاهيين فى الشمال .

ولم يهدأ الصراع بين الأتراك والإيرانيين من أتباع الإسماعيلية . فهؤلاء الإسماعيلية أو الحشاشون شرعوا ، بعد موت الخليفة الفاطمى المستنصر ، يعملون لحسابهم الخاص فى إيران بزعامة الحسن الصباح . وبعد أن اغتالوا

---

(١) نفس المصدر : ص ٢٥٧

نظام الملك تتابعت بعد ذلك الاغتيالات فقتل كثير من أبرز الشخصيات في ذلك العصر . وقد عدد برناون أسماء بعضهم . ولم يسكت أهل السنة على هذه الجرائم التي يرتكبها الشيعة فقاموا يثأرون لقتلاهم ووقعت مجموعة من المذابح منها مذبحة نيشابور في سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م ومذبحة الباطنية التي أمر بها السلطان بركياروق في سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م ومذبحة مدينة آمد التي قتل فيها عدد من الباطنية بلغ سبعمائة سنة ٥١٨هـ /١١٢٤ م ثم المذبحة الكبرى التي أمر بها السلطان سنجر سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧ م انتقاماً لمقتل وزيره معين الملك . وكانت تهمة الباطنية إذا لحقت شخصاً من الأشخاص مبرراً كافياً لقتله . وسادت الفوضى المجتمع الإيراني في ذلك العهد . وعم الذعر بين الناس . وكثيراً ما كان يخرج الرجل من بيته فلا يضمن أن يعود اليه .

٦ — الخوارزميون .

ويقال لهم أيضاً الخوارزمشاهيون وملوك خيوه (٤٧٠— ٦٢٨هـ/١٠٧٧— ١٢٣١ م) . ويرجعون في أصلهم إلى أحد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي واسمه انوشتكين . وهذا المملوك بدأ حياته ساقياً عند السلطان ملكشاه ثم استطاع أن يظفر بمنصب حاكم خوارزم (خيوة) . وخلفه في هذا المنصب ابنه الذي لقب نفسه خوارزم شاه .

وكان أتسز أول من أظهر من هؤلاء المملوك الميل إلى الاستقلال (٥٢١ — ١١٢٦/٥٥١ — ١١٥٦م) . وكان أتسز مقيماً عند السلطان سنجر وكان له تأثير عليه فعينه حاكماً على خوارزم رغم أن وزراءه نصحوه ألا يفعل . وما أن وصل أتسز إلى خوارزم حتى قادالثورة ضد مولاه سنجر الذي وجه الجيش لحربه وهزمه ، وعين مكانه في حكم خوارزم أحد أقاربه سليمان شاه دون أن يزوده بالعدد الكافي من الجند والعتاد . وما كادت جيوش السلطان سنجر تعود حتى أخذ أتسز يجمع شمله ويضم قوته من جديد . وأراد أتسز أن يشغل سنجر بالقراختائيين في الشرق فدعاهم ليمدوا فتوحهم نحو الغرب في بلاد ما وراء النهر . وفي الوادي المعروف

باسم (درغام) لقى سنجر أشنع هزائمه ففر إلى خراسان عن طريق ترمذ ومعه من بقى من فلول جيشه . وبهذا أصبحت بلاد ما وراء النهر فى قبضة القراختائيين . ولأول مرة وجدنا قوماً من المسلمين وهم الخوارزمشاهيون يحالفون قوماً من أعداء دينهم الوثنيين وهم القراختائيون (١) . وفى نفس السنة انتهز أتسز فرصة هزيمة سنجر وبدأ يغير على إقليم خراسان . وأضاف كثيراً من البلاد إلى ملكه .

واستطاع ابنه علاء الدين محمد بعد حرب مع الغوريين فى خراسان أن يخضع الجزء الأكبر من بلاد إيران حوالى سنة ٦٠٧هـ/ ١١٢٠ م ، وأن يخضع بخارى وسمرقند ويغزو مقاطعة كورخان من ملوك القراختائية ، وأن يستولى على عاصمته أترار . وفى سنة ٦١١هـ/ ١١٢٤ م غزا أفغانستان واستولى على غزنة وعزم بعد ذلك على أن يقضى على الخلافة العباسية ولكن ظهور المغول بقيادة جنكيزخان على حدود بلاده فل حده وقضى على آماله .

وكان فى ظهور المغول القضاء على دولة خوارزم .

الأتابكة :

وخضعت لإيران أيضاً للأتابكة . وكان هؤلاء الأتابكة قد تقسموا فيما بينهم أراضى الدولة السلجوقية .

وهؤلاء الأتابكة كانوا من مماليك السلاجقة . وكان لكل واحد من سلاطين السلاجقة أتباعه من هؤلاء المماليك الذين كانوا يشغلون الوظائف الرئيسية فى الجيش والبلاط . وكان منهم مربو الأمراء (أتابك) .

ومن هؤلاء المماليك طوغتيكين Tughtigin الذى كان عبداً عند تتش السلجوقى Tutush الذى عينه وصياً على وريثه دقاق Dukak . ولما توفى تتش استولى عبده على كل السلطات فى دمشق .

---

(١) Skrine & Ross : Heart of Asia p. 139.

وكذلك كان عماد الدين زنكى مؤسس دولة أتابكة الموصل وحلب فإنه كان ابناً لأحد عبيد السلطان ملكشاه السلجوقى .

وكذلك كان أتابكة آذربيجان فإنهم كانوا سلالة أحد المماليك الخاصين للسلطان مسعود أحد سلاطين السلاجقة فى العراق .

وفى فارس بدأت دولة الأتابكة ٥٤٣هـ / ١١٣٨ م ، وتنسب إلى سلغر أحد قواد البركمان فى عهد السلاجقة . وكانت نهايتها سنة ٦٨٦ هـ على أيدى المغول وقد بدأت هذه الدولة بسنقر بن مودود بن سلغر ٥٤٣ — ٥٥٧ هـ وانتهت بابيش بن سعد بن أبى بكر ٦٦٢ — ٦٨٦ هـ .

وفى القرن الثانى عشر الميلادى كانت كل الإمبراطورية السلجوقية (باستثناء الأناضول) فى يد هؤلاء الأتابكة الذين كونوا لأنفسهم إمارات مستقلة) (١) .

وقد قضى المغول على هؤلاء الأتابكة كما قضوا على الدولة الخوارزمية .

ج — **المغول : جنكيزخان :**

المغول فرع من الشعب التركى . كانوا فى أول أمرهم قبائل رحلا تسعى وراء المراعى والعشب فى شمال صحراء جوبى . ويعيشون على أكل لحوم الماشية وشرب لبنها . ويذكر لين بول أن اسم المغول لم يكن مشهوراً حتى القرن العاشر (٢) ويرجع إلى «بيسوكا» الفضل فى تخلص قبائل المغول من سيطرة الصين وتحقيق استقلالهم عنها . ولكن النجاح الأكبر تحقق على يد ابنه جنكيزخان الذى استطاع فى عشرين سنة أن يكون إمبراطورية كبرى وعندما توفى «بيسوكا» فى سنة ١١٧٥ م حل محله ابنه تموجين (لأنه لم يكن قد سمى بعد باسم جنكيزخان) ولم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره .

---

(١) Lane-Poole : Moh. Dynasties p. 159.

(٢) Lane-Pole : Moh. Dynasties p. 202.

ويروى لنا حبيب السير عن حياة جنكيزخان الأولى ما خلاصته أنه حين ولد كان فى قبضته قدر من الدم المتجمد . وكان معنى هذا شجاعة ذلك المولود وقدرته على سفك الدماء .

واسم جنكيزخان الأصلى تموجين . وقد رأى تموجين ذات ليلة فى نومه أن يديه طالتا ، وفى كل منهما سيف ، حتى بلغتا المشرق والمغرب وعندما حكى الطفل لأمه هذه الرؤيا فسرتها له بأنه سيستولى على عالم المشرق وسيريق سيفه الدماء فى المشرق والمغرب .

وفى سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥ م غير أحد كهنة المغول اسم تموجين وجعله جنكيزخان . ومعناها فى لغة التورانيين ملك الملوك (١) .

ومن المعروف إن جنكيزخان لم يكن تابعاً لأى دين أو ملة وكان يحترز عن التعصب ، وترجيح مذهب على مذهب . وكان يعظم ويكرم زهاد وعلماء كل طائفة دون تفريق .

ولا يكاد العقل يصدق ما فعله هؤلاء المغول بالبلاد التى فتحوها من ضروب الوحشية التى تفوق التصور لولا أن المصادر المختلفة أجمعت عليه . ومن هذه المصادر مثلا ابن الأثير الذى يقول عن هؤلاء المغول فى حوادث سنة ٦١٧ ما يأتى بعد الاختصار :

«لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة — يقصد غزو المغول للعالم الإسلامى — استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم اليها رجلا وأؤخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين . ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمى لم تلدنى وياليتنى مت قبل هذا

---

(١) نهاديم نام تو جنكيزخان تو من بعد خود را تموجين مخوان
همه كس ورا اينجنين خواندند بدان نام تو آفرين خواندند
از آن رو كه معنى جنكيزخان بود شاه شاهان بتورى زبان

ومعناها (لقد سميتك جنكيزخان فأنت لاتنادى بعد ذلك باسم تموجين . ولهذا فالكل ينادونك بهذا الاسم الذى سماك به الله . ولعل هذا الوجه يكون معنى جنكيزخان فى لغة التورانيين ملك الملوك)

وكنت نسياً منسياً .. » ثم يقول «وهؤلاء المغول لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة .. فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها دكا وتخريباً وقتلا ونهباً ثم يتجاوزونها إلى الرى وهمدان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد آذربيجان وأرانية ويخربونها ويقتلون أكثر العلماء ولا ينج إلا الشريد النادر فى أقل من سنة . هذا ما لم يسمع بمثله . ثم لما فرغوا من آذربيجان وأرانية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم وعبروا عندها إلى بلاد اللابه واللكز ومن فى ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلا ونهباً وتخريباً . ثم قصدوا بلاد القبجاق وهم من أكثر بلاد الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون إلى الغياض ورءوس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها . فعلوا هذا فى أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار سيرهم لا غير . ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنه وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد . هذا ما لم يطرق الأسماع مثله ، فإن الإسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة إنما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً . إنما رضى من الناس بالطاعة . وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة فى نحو سنة لم يبت أحد من البلاد التى لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم . ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير . وأما دوابهم التى يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير .. إذا نزلوا منزلا لا يحتاجون إلى شىء من خارج . وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئاً فهم يأكلون

جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الوالد لا يعرف أباه» .

وهذا شاهد آخر يتحدث عن وحشية هؤلاء المغول وفظائعهم هو ياقوت الحموى (٥٧٥ – ٦٢٦ هـ/ ١١٧٨ – ١٢٢٩ م) الذى كان معاصراً لإغارة المغول وكان صديقاً أيضاً لابن الأثير . وقد استطاع ياقوت أن ينجو بحياته بكل مشقة من شرهم . وفى الخطاب الذى كتبه ياقوت إلى القاضى الأكرم جمال الدين أبى الحسن على الشيبانى القفطى وزير ملك حلب يتحدث عما رآه من الأهوال وما لقيه من المصاعب حتى استطاع أن ينجو من مرو ويصل إلى الموصل . وقد أورد ابن خلكان هذه الرسالة فى ترجمته لياقوت (١) . يقول ياقوت فى هذه الرسالة بعد مقدمات «كان المقام بمرو الشاهجان المفسر عندهم بنفس السلطان ، فوجدت بها (أى ياقوت) من كتب العلوم والآداب وصحائف أولى الأفهام والألباب ما شغله عن الأهل والوطن وأذهله عن كل خل صفى وسكن ، فظفر منها بضالته المنشودة وبغية نفسه المفقودة ، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص وقابلها بمقام لا يزمع عنها محيص ، فجعل يرتع فى حدائقها ، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها ، ويسرح فى طرفيها . ويتلذذ بمبسوطها ونتفها . واعتقد المقام بذلك الجناب إلى أن بجاور التراب .. إلى أن حدث بخراسان ما حدث من الخراب والويل المبير والتباب ، وكانت لعمر الله بلاداً مونقة الأرجاء ، رائقة الأنحاء ، ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، قد تغنت أطيارها فتمايلت طرباً أشجارها ، وبكت أنهارها فتضاحكت أزهارها ، وطاب روح نسيمها فصح مزاج إقليمها . ولعهدى بتلك الرياض الأنيقة ، والأشجار المتهدلة الوريقة وقد سالت إليها أرواح الجنائب زقاق خمر السحائب فشقت مروجها مدام الطل فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنحل . فلما رويت من تلك الصهباء أشجاره ، ورنحها من النسيم خماره فتدانت ولا تدانى المحبين وتعانقت ولا عناق العاشقين يلوح من خلالها شقائق قد شابه اشتقاق

---

(١) ابن خلكان : ج ٥ ط محيى الدين

الهوى بالعليل فشابه شفتي غادتين دنتا للتقبيل .. الخ هذه التشبيهات إلى أن يقول : وجملة أمرها أنها كانت أنموذج الجنة بلا مين ، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين . قد اشتملت عليها المكارم .. ومن العجب العجاب أن سلطانهم المالك هان عليه ترك تلك الممالك وقال لنفسه اله وآلك ، وإلا فأنت في الهوالك ، وأجفل إجفال الراك ، وطفق إذا رأى غير شيء ظنه رجلا بلا رجال..لكنه عز وجل لم يورثها قوماً آخرين تنزيها لأولئك الأبرار عن مقام المجرمين بل ابتلاهم فوجدهم شاكرين . وبلاهم فألفاهم صابرين فالحقهم بالشهداء الأبرار ، ورفعهم إلى درجات المصطفين الأخيار . فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والإلحاد ، وتحكم في تلك الأستار أولو الزيغ والعناد ، فأصبحت تلك القصور كالمحو من السطور ، وأمست تلك الأوطان مأوى للأصداء والغربان ، يتجاوب في نواحيها البوم ، ويتناوح في أراجيها الريح السموم فيستوحش فيها الأنيس ، ويرثى لمصابها إبليس .. فإنا لله وإنا اليه راجعون من حادثة تقصم الظهر . وتهدم العمر . وتفت في العضد .. فحينئذ تتهتر المملوك (يعني نفسه) على عقبه ناكصاً ، ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيساً بقلب واجب ، ودمع ساكب ، ولب عازب ، وحلم غائب ، فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار ، وابتلاء واصطبار ، وتمحيص الأوزار ، وإشراف غير مرة على البوار والنار لأنه مر بين سيوف مسلولة ، وعساكر مغلولة ، ونظام عقود محلولة ، ودماء مسكوبة مطاولة . وكان شعاره كلما علا قتباً أو قطع سبسبا (لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) فالحمد لله الذي أقدرنا على الحمد ، وأولانا نعمة تفوت الحصر والعد . وجملة الأمر أنه لولا فسحة في الأجل لعز أن يقال سلم البائس أو وصل ، ولصفق عليه أهل الوداد صفقة المغبون ، وألحق بألف ألف ألف هالك بإيدي الكفار أو يزيدون ..» إلى آخر الرسالة .

وكان هؤلاء المغول يتعمدون استخدام هذه الأساليب الوحشية لإيقاع الرعب في قلوب أعدائهم . وكانوا يرون أن تخريب البلدان ، وإبادة

السكان أضمن لهم حتى لا ينقض عليهم أهلوها فيشغلوهم ويعطلوا زحفهم ويستنزفوا قواهم فى معارك جانبية .

ولم يكن الأسرى الذين يقعون فى أيديهم أحسن حالا من القتلى فقد كانوا يستخدمونهم فى مقاتلة مواطنيهم ويجعلونهم فى المقدمة ؛ ولم يكونوا يتورعون عن إلقائهم فى الخنادق ليتخذوا من أجسادهم قنطرة يعبرون عليها . وعلى العموم لم تكن للحياة الآدمية أية قيمة عندهم . إلا أنهم كانوا يستثنون من هذا المصير من يجدونه من أهل البلاد المفتوحة من أهل الحرف والصناعات لأنهم كانوا ينتفعون بهم .

ولا شك فى أن هؤلاء المغول كانت الصرامة طابع حياتهم . وكان الجندى المغولى يمتاز بالنظام والطاعة العمياء للرؤساء . وإذا خرج عن الأصول المرعية كان عقابه شديداً .

ولا تحصى الأمثلة التى وردت فى المصادر التاريخية على وحشيتهم وغلظة أكبادهم . ومن أمثلة هذا ما فعلوه بأهل خوارزم فإنهم أعملوا سيوفهم فى رقاب أهليها ، ولم ينج منهم الا أصحاب الحرف والصناعات الذين نقلوهم إلى منغوليا كعادتهم . وفى مدينة مرو بلغ عدد القتلى رقما قياسياً يقدره ابن الأثير ب ٧٠٠,٠٠٠ بينما يرفعه صاحب جهانكشا إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ وفى نيسابور قطع المغول رءوس القتلى وجعلوا منها أهراماً عالية ، أحدها للرجال ، والثانى للنساء ، والثالث للأطفال . وفى مدينة باميان ثارت ثائرة هؤلاء المتوحشين لمصرع واحد من أمرائهم أثناء القتال فخربوا المدينة تخريباً كاملا وتركوها قاعاً صفصفاً . وظلت بهذا الشكل مهجورة خالية قرناً من الزمان . وعندما زار الرحالة المعروف ابن بطوطة مدينة بلخ فى سنة ٧٢٧ هـ فى عهد السلطان أبى سعيد وجدها خاوية على عروشها بعد أن خربها «تنكيز اللعين» . (١) وكذا كانت الحال فى مدينة ترمذ ، فقد خرب المدينة القديمة تنكيز — كما يذكر ابن بطوطة — وكانت مبنية على شاطئ

(١) رحلة ابن بطوطة : ص ٣١٧ ط الأميرية ١٩٣٩

جيحون . وأما التى شاهدها ابن بطوطة فهى المدينة الحديثة وقد بنيت على بعد ميلين من النهر (١) وفى بخارى أمر بإشعال النار فى بيوتها . وكان أغلبها من الخشب . فاحترقت المدينة كلها فى يوم ولم يسلم من مبانيها سوى المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالطوب الأحمر . وقد روى أن أحد البخاريين ذهب إلى خرسان بعد هذا الحريق فسئل عن حال بخارى وكيف انتهى أمرها مع الغزاة الفاتحين فقال «جاءوا وقلعوا وأحرقوا وقتلوا وحملوا» (٢) . ويعلق صاحب حبيب السير فيقول فى الواقع لا يمكن أن توجد عبارة فى الفارسية أوجز من هذه فيها بيان ما وقع فى بخارى من جيش المغول. وفى مدينة أترار ساقوا جميع أهلها إلى الصحراء وأجهزوا عليهم بالسيوف الحادة . ويذكر حبيب السير أن المغول قتلوا فى قزوين بشيف الحقد ما يقرب من خمسين ألف رجل حتى ارتوت الأرض بالدماء ونبتت من دماء القتلى الزهور الممشوقة القد الوردية الخد (٣) . وفى الرى كان هناك تعصب مذهبى بين الأهالى ، وعندما سمع الشافعية بخبر وصول المغول أسرعوا لاستقبالهم وحرضوا القائدين المغوليين (جبه) و(سوبداى) على قتل نصف المدينة الذين كانوا أحنافاً ، فأبادهم المغول بحد السيف . وبعد ذلك قالوا لأنفسهم أى خير يرجى لنا من الذين يسعون فى دم مواطنيهم ؟ ثم قتلوا الشافعية أيضاً فى عقب الحنفية .

وكان من عادة هؤلاء المغول أن يسموا المولود باسم أول داخل فى البيت عند ولادته . وقازان وقازغان هو القدر . قيل سمى غازان بذلك الاسم لأنه لما ولد دخلت عليه جارية ومعها قدر (٤) .

وكان من عادة المغول حسب أحكام الياسا أو اليساق أن يجتمعوا مرة

---

(١) نفس المصدر : ص ٣١٦

(٢) خواندمير : حبيب السير ج ٣ ونص العبارة هناك «آمدند و كندند وسوختند وكشتند وبردند» .

(٣) نفس المصدر والجزء .

(٤) خواندمير : حبيب السير ج ٣

كل سنة على هيئة مؤتمر عام يحضره الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة . وكانوا يحاسبون الملوك على سياستهم ومدى التزامهم بتنفيذ أحكام الياسا .

وكان الاستحمام عند هؤلاء المغول من الجرائم التى تصل عقوبتها إلى الإعدام ، وكذلك كان تنظيف الأيدى أو الملابس فى المياه الجارية (١) .

وكانت طريقتهم فى ذبح الحيوان صورة لوحشيتهم إذ كانوا يشقون بطنه ويخرجون ما فى جوفه . وحرموا على المسلمين أن يذبحوا بطريقتهم (٢).

وكان من عاداتهم عند وفاة ملوكهم أن يقتلوا مجموعة من الفتيات الحسناوات ويقدموهن قرباناً لروح الملك .

كما كان من عاداتهم إذا مات ملك من ملوكهم أن يسدوا الطرق ويمنعوا الناس من التنقل حتى لا يروا جنازته . وغرضهم من ذلك أن يخفوا موته على الناس قبل أن يعلن رسمياً . ومن أوقعه سوء حظه فى طريق الجنازة قبل إعلان الخبر رسمياً قتل . ويذكر براون نقلا عن دوسون أن أوكداى أمر بقتل أربعين فتاة عذراء قرباناً لروح جنكيزخان . وصرح الجند الذين رافقوا جثمان الامبراطور المغولى منكوخان إلى مثواه الأخير فى جبال التاى بأنهم قتلوا فى طريقهم مالا يقل عن ٢٠,٠٠٠ شخص (٣) .

وكان من عادات هؤلاء المغول أن يسرفوا فى الشراب .

أما كيف حلت هذه اللعنة بإيران نفيها يأتى مجمله :

عندما تولى جنكيزخان الحكم كانت سنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ولذلك بذل مجهوداً كبيراً ووقتاً طويلا بلغ ثلاثين سنة فى الكفاح ضد أعدائه من الأتراك المجاورين حتى استطاع أن يخضعهم ويثبت ملكه . وبعد انقضاء

---

(١) براون : ٢/٤٤٠ والترجمة العربية ٥٦١

(٢) نفس المصدر

(٣) براون : ٢/٤٤٥ والترجمة العربية ص ٥٦٧

هذه السنين الثلاثين كان قد بقى من عمره عشرون سنة قضاها فى الفتح والتوسع .

ففى سن الرابعة والأربعين بدأ بإخضاع الأويغور ، ولم تكد تنقضى على ذلك ثلاث سنوات حتى غزا الصين واستطاع أن يضم اليه بعض مقاطعاتها الشمالية مثل مملكة ليوتانج ومملكة تانخوت . وعندما فرغ من أمر الصين كان عليه أن يزيل من طريقه مملكة قراختاى التركية التى كان يحكمها الكورخانات . وسرعان ما سيطر عليها هى الأخرى (١) .

وبهذا الشكل أصبحت حدود دولة جنكيزخان متاخمة لحدود مملكة الخوارزميين . وكان طبيعياً أن تحدث الاحتكاك بينهما فى يوم من الأيا ؛ ومن أسف أن ملك خوارزم السلطان محمد لسوء حظه وحظ العالم الاسلامى كله كان هو الذى أتاح الفرصة المناسبة لجنكيزخان حين قتل رسله ؛ وكان ذلك خطئاً كبيراً منه . ولم يكن هذا هو كل خطئه فقد وقع بعد ذلك فى سلسلة أخطاء عددها النسوى فى كتابه . ونشير اليها فيما بعد .

وعندما بلغ جنكيزخان ما فعله محمد خوارز مشاه برسله صمم على الانتقام وسار فى جيش كثيف «يزيد على القطرات والذرات فى العد والحساب» (٢) . وقسم جنكيزخان قواته بين أبنائه ، ووكل إلى كل واحد منهم مهمة ؛ فأوكداى وجغتاى كان عليهما اخضاع أترار ، واتجه جوجى خان إلى جند بينما اتجه أثنان آخران من قواده للاستيلاء على فناكت وخجند واتجه جنكيزخان بنفسه مع ابنه تولى إلى بخارى فوصلها فى سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩ م .

أما أترار فقد سقطت بعد قتال عنيف وحصار دام خمسة أشهر ، ولقيت الخيانة دورها فى هذا الفتح . ومع ذلك فان حاكمها من قبل السلطان

---

(١) لين بول : ص ٢٠٣

(٢) خواندمير : حبيب السير مجلد ٣

الخوارزمى ضرب مثلا رائعاً من أمثلة البطولة إذ ظل يقاوم فى قلعتها مع من ثبت معه . وكان رجاله يتساقطون واحداً بعد الآخر دون أن يثنيه ذلك عن مواصلة القتال . وفى النهاية قبض عليه المغول وحملوه إلى جنكيزخان حيث قتل .

أما بخارى فقد حاصرها جنكيزخان ثلاثة أيام ثم دخلها بعد أن كان الجند الخوارزميون قد تسللوا منها تحت جنح الظلام عائدين إلى خراسان ولما وجد الأهالى أن المدينة قد خلت من الجند المدافعين أرسلوا فى طلب الصلح فأجابهم جنكيزخان إلى طلبهم ، ودخل المدينة سنة ٦١٦هـ/ ١٢٢٠ م أما الجند المسلمون الذين تحصنوا فى قلعتها فقد ظلوا يقاومون حتى قتلوا عن آخرهم . واندفع المغول ينهبون المدينة ، وانتهكوا حرمة المسجد ، وجعلوه اصطبلا لخيلهم . ولما عرف جنكيزخان أن عدد أمن اتباع خوارزمشاه قد اختلطوا بالأهالى واندسوا بينهم غضب غضباً شديداً وأمر بأن يشعلوا النار فى بيوت البخاريين . وكان أكثرها من خشب فاحترقت المدينة عن آخرها فى يوم واحد . ولم يبق بها عمارة سالمة سوى المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالطوب الأحمر .

- أما مدينة سمرقند فقد تركها السلطان محمد خوارزم مشاه لحاميتها التى تدافع عنها وابتعد هو خوفاً من المغول . وبعد حصار المغول للمدينة خمسة أيام اختلفت آراء سكان سمرقند فمال البعض للصلح وأصر البعض على الولاء للسلطان . وفى الصباح خرج قاضى سمرقند وشيخ إسلامها مع فوج من أشراف المدينة وأسرعوا يطلبون الأمان من جنكيزخان الذى أمنهم وأمرهم بالعودة وفتح أبواب المدينة . وتدفق عسكر المغول عليها ، وفصلوا القاضى وشيخ الاسلام وخمسين ألفا من أتباعهما عن سائر الناس وساقوا الباقين إلى الصحراء حيث أهلكوهم . وقتل المغول ما يقرب من ثلاثين أميراً من أمراء الخوارزميين مع كامل جندهم وفصلوا عن سائر الناس ثلاثين ألفاً من أرباب الحرف قسمهم جنكيزخان على أولادة وأقربائه (١) .

---

(١) خواندمير : حبيب السير مجلد ٣

ويبين النسوى أوجه الخطأ التى وقع فيها السلطان فى قتاله مع المغول فيقول انه أمر ببناء سور على مدينة سمرقند يبلغ امتداده اثنى عشر فرسخاً وزوده بالمقاتلة للدفاع عنه ، وجمع من الناس خراج سنة مقدماً ليتفق على بناء ذلك السور ولكن السور لم يتم بناؤه لأن التتار أعجلوه عن ذلك (١) . ومن هذه الأخطاء أيضاً أن السلطان عندما سمع بقرب جنكيزخان فرق عساكره بمدن ماوراء النهر وبلاد الأتراك . ولم يترك بلداً من البلاد خالياً من جيش كبير . ويذكر النسوى أن هذا الإجراء كان خطأ من السلطان لأنه شتت شمل جنده وفرق كتائبه . ولو أنه لقى التتار بمجموعة مكتملة لاخطفهم خطفاً وأنسفهم عن الأرض نسفاً (٢) .

ومن جملة أخطائه — غير ما ذكره النسوى — أنه عندما حارب المغول كانت مملكته لا تزال فى دور التأسيس ولم يكن حكمه قد استقر بعد (٣) . وكان واجباً عليه — وهذا موقفه — أن يهادن المغول ليتفرغ لمملكته أولا بدلا من إثارتهم ودفعهم لحربه ومقاتلته . يضاف إلى هذا أيضاً أنه تحدى الخلافة فهيج الرأى العام ضده وشغل نفسه بأكثر من جبهة فى وقت واحد .

وأما نيشابور فقد قصدها المغول بعد أن عبروا النهر . ولم يكن محمد خوارزم مشاه يعتقد أنهم سيعبرون نهر جيحون فلما بلغه ذلك فر منها إلى مازندران فتتبعه المغول إليها بغية اللحاق به والقبض عليه فتحول عنها إلى الرى وهم يجدون وراءه ثم إلى همذان ولكنهم كانوا لا ينون عن الجد فى طلبه فعاد مرة أخرى إلى مازندران . ومن هناك أبحر فى بحر طبرستان إلى قلعة فى وسطه . وانقطعت أخبار محمد خوارزم مشاه فى تلك الجزيرة التى أقام بها فى بحر طبرستان حتى مات سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢١ م .

***

وبالاختصار دمر هؤلاء المغول ما فتحوه من البلاد ، وأبادوا أكثر

---

(١) محمد بن أحمد النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتى نشر هوداس ص ٣٦

(٢) نفس المصدر ص ٣٧ :

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ١ / ١٠٦

أهلها . ففى الرى قضوا على سكانها كما ذكرنا فيما سبق . وفعلوا نفس الشيء فى قم . أما كرزرود فقد أحرقوها . وأما خرم آباد فقد جعلوها مأتماً . وقتل «سويداى» فى قزوين ما يقرب من خمسين ألفاً (١) . وفى وفى نيسابور بنوا أهرامات من جماجم القتلى . ولم يغادروا باميان الا وهى خرائب وأطلال . أما بلخ فقد خوت على عروشها وتجردت من كل معالم الحياة . وقد رآها ابن بطوطة فى رحلته وهى على تلك الحال (٢) . وكانوا قد خربوا مدينة ترمذ التى تقع على شاطىء جيحون فبنيت بعد ذلك من جديد . ولكن ترمذ الجديدة كانت تبعد عن شاطىء النهر ميلين (٣) .

وكانت مدة حكم محمد خوارز مشاه إحدى وعشرين سنة وشهوراً امتدت فيها مملكته من العراق غرباً إلى تركستان شرقاً وضمت بلاد غزنة ، وبعض الهند ، وسجستان ، وكرمان ، وطبرستان ، وجرجان ، وبلاد الجبال ، وخراسان وبعض بلاد إيران .

وترك محمد خوارز مشاه ملكه لابنه البطل جلال الدين ، كما ترك أمه وزوجاته وأولاده أسرى فى يد المغول .

* * *

ولا شك فى أن خليفة محمد خوارز مشاه كان بطلا إسلامياً جديراً بالتقدير . ولم ييأس جلال الدين خوارز مشاه بعد سقوط مملكته فى أيدى المغول . فاتجه أولا إلى بلاد الهند حيث تبعوه إلى هناك وأحاطوه من كل جانب . وقد قاومهم مقاومة عنيفة . وعندما رأى أن لافائدة ترجى من المقاومة انسحب عائداً إلى ايران محاولا استرجاع ملكه ، واتجه إلى مقاطعة فارس حيث تزوج ابنه الأتابك سعد . ولكنه بعد أن أكد سيادته على بلاد ايران اتجه لقتال الخليفة ومنازعته بدل أن ينصرف إلى جمع قواه لملاقاة عدوه الأكبر ، المغول . وشغل جلال الدين بالإضافة إلى ذلك بحرب أخيه

---

(١) حبيب السير :

(٢) ابن بطوطة : ص ٣١٧

(٣) نفس المصدر : ص ٣١٦

«غياث الدين» الذى خانه كما حارب أيضاً حاكم كرمان «براق الحاجب» ، وحارب كذلك طائفة الحشاشين . وهكذا وجدنا جلال الدين يحارب فى وقت واحد فى مجموعة من الجهات وكان موفقاً فى أول الأمر إذ استولى فى سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م على كرمان وأصفهان . والرى كما تمكن فى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م من هزيمة جيش الخليفة وتبعه حتى بغداد واستولى على تبريز . وفى سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م أسرع إلى الجنوب الشرقى من إيران حيث أدب حاكم كرمان براق الحاجب الذى خانه بالتحالف ضده مع المغول . وفى سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م هزم الحشاشين ثم حقق بعد ذلك نصراً كبيراً على المغول فى دامغان . ولكن هذه الانتصارات لم تغن عنه شيئاً حين هاجمه المغول سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٢٩ م . ومن ذلك الوقت بدأ نجمه فى الأفول وأخذ يتراجع أمامهم . ثم طفق بعد ذلك يهيم على وجهه متخفياً من قرية إلى قرية حتى حان حينه فى قرية كردية فى الجبال سنة ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١ م .

ولو كان جلال الدين يحسن الإدارة كما يحسن الحرب لاستطاع أن يتغلب على المغول الذين كانوا وقتذاك متعبين بعد أن قطعوا آلافت الأميال وهم يحاربون بعيداً عن أوطانهم (١) .

ويبدو مما ذكره النسوى فى سيرة جلال الدين أنه كان محبوباً من رعيته لأنهم لم يصدقوا أنه مات . وكانوا يعتقدون أنه حى يستعد فى مخبئه للظهور من جديد والانقضاض على المغول ويقول النسوى إنه ما نزل ببلد من البلاد إلا والناس يرجفون بأن السلطان باق ، وأنه جمع واحتشد واستمد واستعد . أخابر زور ، أمانى غرور يفترها الأهواء ، وتخلقها الود والولاء إلى أن عدت إلى ميافارقين وتيقنت هلاكه » (٢) .

٨ - **المغول : الايلخانيون :**

بعد أن مات جنكيزخان فى ٦٢٥هـ / ١٢٢٧ م. انتخب بعده ابنه

---

(١) Sykes ; A History of Persia p. 60. Oxford. 1922.

(٢) النسوى : سيره جلال الدين منكبرتى ص. ٢٤٥ نشر هوداس. ١٨٩١/

أوكداى . وقد تم انتخابه فى نفس الوقت الذى مات فيه جلال الدين خوارزم مشاه وانتهى حكم ملوك خوارزم . ثم خلفه فى الملك كيوك، منكو.

وفى عهد منكو هذا جرد المغول على ايران حملة أخرى بقيادة هولاكوخان أخى منكو . ويعتبر هولاكو مؤسس أسرة الايلخانيين فى ايران التى حكمت قرابة قرن (٦٥٤ – ٧٥٠ هـ / ١٢٥٦ – ١٣٤٩ م) . ولكنهم وإن كانوا فى أول أمرهم غزاة فاتحين وثنيين الا أنهم أسلموا بعد فترة من الزمن ، واستطاعوا أن يمتزجوا بالشعب الايرانى ، ويكتسبوا ثقته . وكان هولاكو ومن تبعه من المغول يتولون حكم ايران بصفتهم نواباً عن الخان الأكبر ولكنهم كانوا يتصرفون فى حرية مطلقة من الناحية الفعلية .

وفى هذه الحملة التى قادها هولاكو اكتسح خراسان ووجه همه للقضاء على الاسماعيلية . ويفصل جامع التواريخ وقائع هولاكو مع هؤلاء الاسماعيلية . ففى يوم الأحد غرة ذى القعدة سنة ٦٥٤ استطاع بمعونة نصير الدين الطوسى أن يغرى خورشاه آخر الاسماعيلية بترك قلعته التى كان يتحصن بها والتى ظلت حصن أسرته قرنين من الزمان وأن يعلن خضوعه لجنكيزخان(١) . وأرسل خور شاه إلى جميع أتباعه يدعوهم إلى تسليم ما بأيديهم من القلاع للمغول . وبناء على هذا تسلم هولاكو جميع الحصول والقلاع فى قهستان ورودبار وقومس بما فيها من ذخائر ومعدات وقد بلغ عدد هذه القلاع نحو مائة (٢) . وفى يوم الاثنين ٢٦ من ذى القعدة استولى هولاكو على قلعة الموت بعد أن دعا ركن الدين خورشاه المعتصمين بها للتسليم (٣) .

وكانت لا تزال هناك قلاع كثيرة فى أيدى هؤلاء الملاحدة ، ورأى هولاكو أن يبالغ فى إكرام خورشاه حتى ييسر له

---

(١) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ المجلد الثانى – الجزء الأول ترجمة نشأت رهنداوى والصياد ص ٢٥٤ نشر وزارة الثقافة ١٩٦٠

(٢) رشيد الدين فضل الله جامع التواريخ مجلد ٢ ج ١ ص ٢٥٥ الترجمة العربية

(٣) نفس المصدر : جامع التواريخ ص ٢٥٦

سبيل الاستيلاء على تلك القلاع دون حاجة إلى القتال والتضحية بالرجال . ففى يوم الخميس العاشر من المحرم سنة ٦٥٥ هـ أنعم عليه هولاكو انعامات كثيرة وزوجه فتاة مغولية (١) . وأرسل خور شاه فعلا بعض خاصته مع رسل هولاكو إلى تلك القلاع ليحث أهلها على التسليم للمغول . وعندما فرغ خورشاه من تسليم قلاع الاسماعيلية أرسله إلى الخان الأكبر الذى قتله وأعمل السيف فى أقاربه وأتباعه ولم يسلم منهم حتى الأطفال . وهكذا قضى هولاكو على هؤلاء الملاحدة الذين ظلوا يفسدون فى البلاد سبعا وسبعين ومائة سنة (٢) .

وفى التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٦٢ هـ توفى هولاكو خان ودفن فى قلعة تلا من نواحى مراغة بالغا من العمر خمسين سنة .

وكان هولاكو على مذهب البوذية . بنى فى خوى داراً للأصنام . أما امرأته «طوقوزخان» فكانت تدين بالنصرانية . وبسبب هذه الزوجة النصرانية كانت علاقته طيبة بالعالم المسيحى . ويقال إنه كانت هناك اتفاقات بينه وبين حكومات أوربا المسيحية للقضاء على الاسلام(٣) .

ويعتبر أحمد تكودارخان أول من أعلن إسلامه من المغول الذين حكموا ايران وإن كان قد أخفى مسيحيته أما غازان فقد كان لإسلامه صدى كبير من المغول الذين دخلوا تبعاً له فى هذا الدين ومن عهد غازان ثبت الإسلام فى قلوب الايلخانيين ولم تعد محاولات المسيحية تجدى فى كسبهم إليها . ونشير فيما بعد إلى موقف المغول من الاسلام .

وبدأ الضعف يدب فى هذه الدولة فى عهد أبى سعيد (٧١٦ – ٧٣٦ هـ/ ١٣١٦ – ١٣٣٥ م) . وكانت أسباب الضعف هى نفسها الأسباب التى أودت بالمماليك السابقة كتنافس الأمراء والقواد والوزراء . ومن صور

---

(١) نفس المصدر : جامع التواريخ ص ٢٥٧

(٢) نفس المصدر : جامع التواريخ ص ٢٥٨

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ١/٢٥٦

هذه المنازعات ما كان بين أسرة الأمير جوبان أحد القواد المقربين إلى غازان وأولاده وبين أسرة الأمير حسين الجلايرى . وقد ظل النزاع بين الأسرتين والتنازع بين أمرائهما فترة من الزمن حتى استطاع الجلايريون فى نهاية الأمر أن يسيطروا ويصبحوا هم القوة الرئيسية فى إيران بعد انقضاء حكم الايلخانيين .

أما الوزراء فكان كل منهم يسعى للإيقاع بصاحبه والخلاص منه . ودخل بينهم اليهود فلعبوا دوراً خطيراً فى زيادة الوقيعة والدس وتدبير الفتن والمؤامرات . وكانت زوجة سعد الدين أحد الوزراء فى عهد الجايتو يهودية فلما قتل زوجها استعانت بهؤلاء اليهود للانتقام من رشيد الدين الذى كان هو الآخر يستعين بهم للقضاء على خصومه (١) .

والحقيقة أن شأن اليهود كان قد بدأ يرتفع منذ أيام أرغون خان . وكان وزيره فى خلال الجزء الأخير من حكمه يهودياً هو سعد الدولة الذى كان أصلا من أهالى أبهر ثم عاش فى بغداد فترة اشتغل فيها بالطب ثم انتظم بعد ذلك فى سلك الأطباء اليهود فى عهد اورغون (٢) . وينسب إلى هذا الوزير اليهودى أنه دبر كثيراً من الخطط للقضاء على الإسلام . وقد استطاع أن يكسب ثقة مولاه حتى عهد اليه بشئون البلاد المالية . وبفضل نفوذه وسيطرته استطاع زملاؤه من اليهود أن يتسللوا إلى كثير من مناصب الدولة حتى قال بعض الشعراء :

يهود هذا الزمـــان قد بلغوا ... مرتبة لا ينالهـــا مـــلك
الملك فيهـــم والمـــال عندهم ... ومنهم المستشـــار والمـــلك

... الخ (٣) . وكلما ازداد نفوذ سعد الدولة وسيطرته على شئون المملكة ازدادت جرأته وانكشفت عداوته ضد الإسلام حتى إنه عرض

---

(١) المصدر السابق : ٤٤٣/١ .
(٢) خواندمير : دستور الوزراء ص ٢٩٦ ط تهران
(٣) براون : ٣٢/٢

على اورغون اقصاء جميع المسلمين من جميع المناصب الرئيسية فى الدولة بل والقضاء على الإسلام نفسه . وقد أعد خطة لتجريد حملة إلى مكة وتحويل الكعبة إلى بيت للأصنام . ودبر خطة للقضاء على كبار الشخصيات الإسلامية فى البلاد فأرسل نجيب الدين الكحال اليهودى إلى خراسان ومعه قائمة سوداء بأسماء حوالى مائتين من كبار المسلمين هناك ليتولى القضاء عليهم . وأرسل قائمة أخرى إلى شيراز تضم أسماء سبع عشرة شخصية إسلامية بارزة من شخصيات شيراز للتخلص منهم . ومع أن أرغون عندما تولى الملك كان يكره إراقة الدماء الا أن هذا الوزير سعد الدولة حبب إليه إراقة الدماء ، وقتل الأبرياء لأقل شبهة وأدنى هفوة . ولكن ما إن أوشكت أهداف سعد الدين على بلوغ القمة حتى وقع ارغون مريضاً فى تبريز . وعندما تبين أن شفاءه ميئوس منه لم ينج سعد الدولة من يد أعدائه فأعدم قبل أيام من وفاة ارغون فى ٩ مارس ١٢٩١ . وكان مقتل سعد الدولة فرصة للتخلص من اليهود حتى ذبح كثير منهم . وفى بغداد وحدها قتل من زعماء اليهود ما يزيد على مائة . ويعلن الشاعر زين الدين على بن سعيد فرحته بهذه المناسبة فى قوله : (١)

نحمد من دار باسمه الفلك
هذى اليهود القرود قد هلكوا
وقارن النحس سعد دولتهم
وافتضحوا فى البلاد وانهتكوا
وشتت الله شمل ملكهم
وبالحسام الصقيل قد سبكوا
... الخ هذا الشعر

٩ ـ المغول : التيموريون :

٧٧١ ـ ٩٠٦ هـ/ ١٣٦٩ ـ ١٥٠٠ م

ولد تيمور فى قرية خواجة ايلغار من أعمال كش . وروى أنه لما ولد

(١) براون : ٣/٣٤ والشعر منقول عن تاريخ وصاف

كانت كفاه مملوءتين بالدم . ولما رجعوا إلى أهل العلم اختلفوا فى تفسير هذه الظاهرة ولكنهم اتفقوا على أنه سيصبح جباراً عتيا (١) . وقد ذكرت المصادر قصة أخرى شبيهة بهذه عند مولد جنكيزخان . وقد ذكرنا قصة جنكيز فيما سبق نقلا عن حبيب السير (٢) . وواضح أن هذه القصص إنما كانت توضع للعظماء بعد ما يرتفع شأنهم لتكون كالبشير بعظمتهم .

وكان مولد تيمور فى ٢٨ شعبان سنة ٧٣٦ هـ / ١١ من ابريل سنة ١٣٣٦ م . وتختلف المصادر فى أصله ونسبه . فبعضها ينسبه إلى ملوك المغول القدماء (٣) . وينسبه بعضها إلى قبيلة برلاس التركية (٤) . أما لين بول فيصل نسبه إلى جنكيزخان (٥) . ولكن ابن عربشاه يتردد فى حقيقة أصله ونسبه بين أكثر من رأى ، فبينما يقول ان أباه كان اسكافياً فقيراً جداً ، وأنه فى شبابه حاول أن يسرق إحدى الأغنام فضربه الراعى بسهم أصابه فى كتفه ثم ثنى عليه بسهم آخر فى فخذه فأصابها هى الأخرى، وأصبح بذلك مصاباً فى يمينيه الكتف والفخذ (٦) تراه فى موضع آخر يقول إن الأصح أن أباه ترغاى أحد أركان دولة السلطان وأنه يتصل فى نسبه بجنكيزخان (٧) . وترغاى هذا كان أميراً من قبيلة برلاس تولى)حكم مقاطعة كش وملحقاتها (٨) . وواضح من هذا الاختلاف ، ومن تردد ابن عربشاه نفسه وترجيحه اتصال نسب يتمور بجنكيزخان عراقة أصله .

ويذكر ابن عربشاه فى نشأة تيمور أن الراعى بعد أن أصابه بالسهام

---

(١) ابن عربشاه : عجائب المقدور : ص ٦ ط وادى النيل بالقاهره

(٢) راجع أول ص ٥١ من هذا البحث

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق فيما بين احتلالين ٢/٢٦٢

(٤) Skrine & Ross : Heart of Asia p. 168
Sykes : A History of Persia p. 65

(٥) Lane-Poole : Mohamedan Dynasties p. 265

(٦) عجائب المقدور . ص ٦

(٧) نفس المصدر : ص ٨

(٨) Skrine & Ross : p. 168

حمله إلى والى هراة الأمير حسين الذى أمر بتعذيبه وقتله . ولكن ابنه غياث الدين شفع فيه واستوهبه من أبيه . ولم يكن الأمير حسين مقتنعاً بوجهة نظر ولده غياث الدين فى العفو عنه ، ولكنه مع ذلك قبل شفاعته وعفا عنه . وأخذ ابن السلطان يقوم بعلاجه ورعايته حتى شفى واشتغل بعد ذلك بخدمة ابن السلطان وبذل فى هذه الخدمة غاية الجهد حتى ارتفعت مكانته عنده . وقد وجهه السلطان إلى نائبه فى سجستان ، وكان قد عصى ، فقبض عليه تيمور وأخضع البلاد فازداد بهذا قدره عند السلطان . وقيل إنه ظل يخدم ابن السلطان حتى إذا توفى أبوه وانتقل الملك اليه ثار عليه (١) واستولى على هراة . وكان جزاء السلطان منه أنه حبسه حتى مات فى محبسه من الجوع والظمأ .

غزواته لإيران :

غزا تيمور إيران ثلاث مرات : كانت غزواته الأولى سنة ٧٨٢ هـ/ ١٣٨٠ م حينما أخضع خراسان وسجستان ومازندران .

وكانت غزوته الثانية فى سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ — ١٣٨٥ م عندما غزا آذربيجان ، عراق العجم ، جورجيا . وانتهت هذه الغزوة بخضوع شيراز ومذبحة أصفهان التى قتل فيها ٧٠,٠٠٠ .

وكانت غزوته الثالثة والأخيرة فى ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م عندما أخضع فارس مرة أخرى بعد القضاء على الأسرة المظفرية والسربدارية فى سبزوار ٧٨٣ هـ/ ١٣٨١ م والكرت فى هراة ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م .

وكانت ايران بعد انقضاء دولة الإيلخانيين مقسمة بين أربع دويلات ؛ المظفريون الذين كانوا يحكمون فى فارس والعراق العجمى وكرمان ، والجلايرية فى بغداد وآذربيجان ، والسربداريون فى سبزوار ، والكرت فى هراة وكلاهما فى الشمال الشرقى .

---

(١) عجائب المقدور : ص ٩ ، ١٠

وقد بدأ تيمور يغزو ايران فى ربيع ١٣٨١ م بينما كان عمره ٤٥ سنة وكان اهتمامه فى هذه الغزوة موجهاً إلى خراسان . وفيها سلمت له سرخس ثم استولى على بوشنج . وبعد ذلك سقطت هراة وسلم غياث الدين بير على الحاكم التركى . وبعد ذلك جاء دور طوس واسفراين التى سواها بالأرض وقتل أكثر أهلها .

وفى ربيع السنة التالية ١٣٨٢ م واصل غزواته فى بلاد ايران .

وفى سنة ١٣٨٣ م قام بغزوة ثالثة ضد سجستان وما زندران . وفى حوالى نهاية اكتوبر استولى على سبزوار وحطم قلعتها وأسر ما يقرب من ألفين من أهلها . وبعد أن تلقى خضوع فراه استولى على زره حيث ذبح معظم حاميتها وشيد من جماجمهم أهراماً . وفى ديسمبر سقطت سجستان ولم يترك فيها شيئاً دون أن يسليه . وكان أهلها قد خرجوا اليه يطلبون الصلح فوعدهم بالصفح إذا سلموا كل ما عندهم من الأسلحة ففعلوا . ولما تأكد أن المدينة قد غدت من السلاح فارغة وضع السيف فى أهلها ثم خرب المدينة وجعلها خرائب وأطلالا . وقد أظهر الأهالى شجاعة فائقة فى الدفاع عن مدينتهم رغم الخسائر الفادحة التى تكبدوها ولم يسلموا من الذبح فى نهاية الأمر . ويذكر سايكس أنه عندما زار سجستان لم يجد بها أكثر من قرية فى كل المقاطعة التى كانت فى يوم من الأيام مشهورة بثروتها عامرة بمبانيها حالية بعلمائها (١) . وهذا غريب مع امتداد الفترة الزمنية بين الحادثتين . وفى السنة التالية لغزو سجستان اتجه إلى استراباد . وعند ذاك أخضع مقاطعة مازندران واستولى على الرى وأخضع الولايات الواقعة على بحر خزر وشمال إيران حتى سلطانية فى سنة ١٣٨٥ م . وبعد ذلك بسنتين احتل آذربيجان وسيطر على جورجيا . وكانت أصفهان غايته بعد ذلك فحاصر المدينة وخرج اليه أهلها وتصالحوا معه على أموال يدفعونها اليه . وتفرق رسله ومحصلوه ليجمعوا تلك الأموال من الأهالى فكانوا يعيثون فى المدينة فساداً

(١) سايكس : ص ٦٧

ويعيثون حتى إذا ضاق أهل أصفهان بهذه الحال هجموا على رجال تيمور وقتلوا منهم نحو ستة آلاف . ولما بلغ تيمور ما فعله الأصفهانيون برجاله توجه اليهم على الفور فى شدة الغيظ وأمر بالقضاء على المدينة قضاء تاماً فلم يبق فيها حياة ،ولاعمارة ، ولا زرعاً ، حتى الأطفال لم يرحمهم وجعلهم لسنابك الخيل (١) . وبلغ عدد القتلى فى أصفهان بعد تلك المذبحة ٧٠,٠٠٠ كانوا يجمعون جماجمهم ويجعلون منها أهراماً ومآذن . وكان هذا فى يوم الاثنين ١٨ من نوفمبر سنة ١٣٨٧ م .

ثم واصل تيمور بعد ذلك سيره إلى شيراز التى أذعنت له فى الشهر التالى (ديسمبر ١٣٨٧) . ويزعم دولتشاه أن اللقاء تم فى هذه الغزوة بين تيمور وحافظ الشاعر الشيرازى المشهور .

وبعد ستة أشهر اتجه الفاتح المغولى إلى جنوب بلاد الفرس حيث قابله شاه منصور المظفرى فى عدد من فرسانه يبلغ ٤٠٠٠ فارساً . وكان مصيره الهزيمة والقتل فى النهاية .

وعندما غزا تيمور الهند كان قد بلغ سن السبعين . ومع ذلك فقد فقد غزا بعد ذلك آسيا الصغرى واستولى على حلب ودمشق ولم يحاول غزو مصر .

ومات تيمور لنك بعد ذلك بمدة وجيزة عندما قاد حملة ضد امبراطور الصين ودفن فى شمرقند . وكانت وفاته سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م . وله من العمر تسع وسبعون سنة .

وقد امتدت امبراطوريته من دلهى إلى دمشق . ومن بحر آرال إلى الخليج الفارسى . وضمت امبراطوريته أغلب أجزاء ايران وأفغانستان بالاضافة إلى المقاطعات الواقعة فيما وراء النهر .

---

(١) عجائب المقدور : ص ٣٧

وقد أورد ابن عربشاه معلومات قيمة تفسر لنا أسباب هذه الانتصارات العسكرية التى كان يحرزها تيمور ، فانه لم يكن يقصد بلداً من البلاد الا بعد أن يكون عيونه فيها قد أتوا اليه أخبارها وأحوال أهلها خصوصاً الرؤساء والأمراء والكبراء . فكان لهذا إذا حل ببلد واجتمع بأهلها سأل عن فلان وفلان ، وعما تم فى النزاع بين فلان وفلان فيهت الحاضرون من ذلك الرجل الذى يعرف عنهم كل شىء (١) .

وكانت له فى الحروب ووضع الخطط أساليب تدل على الدهاء والمكر ومن عادته قبل كل حرب أن يجمع رجاله ويعرض عليهم الأمر ويتلقى فيه مشورتهم حتى إذا اتفقت الآراء وانفض المجلس عاد ودعا خاصته ومقربيه إلى مجلس سرى آخر. وأعادوا طرح الموضوع من جديد . وناقشوا وتباحثوا حتى يخرجوا فيه برأى قد يخالف الرأى الأول . وهذا الرأى الأخير يبقى سراً فلا يعرفه أحد ممن حضروا المؤتمر الأول . وبذلك يضمن لخططه السرية الكاملة .

ثم كان إذا استقر رأيه على جهة يقصدها أعلن أنه يقصد جهة غيرها ليحول الأنظار عن مقصده الحقيقى ويضلل العيون والجواسيس عن وجهته التى يتجه اليها فعلا . ثم لا يلبث بعد ذلك حتى يفجأ عدوه من حيث أمن واطمأن .

وكان فى بعض الأحيان يتظاهر بالضعف والتراجع ليستدرج عدوه إلى المكان الذى يريد أن يحاصره فيه (٢) .

وإلى جانب هذه المهارة فى القتال وسعة الاطلاع بأحوال البلاد وأهليها كان عسكره أيضاً من نوع خاص أوتى القدرة الفائقة على تحمل المشاق والاكتفاء بالقليل والصبر على المكاره ومعرفة البلاد وما فيها من خيرات

---

(١) عجائب المقدور : ص ٢٢١

(٢) نفسه ص ٢٢٢

وكنوز . ولا بأس هنا فى أن نقتبس من كلام ابن عربشاه حين يتحدث عن براعة عسكر تيمور فيقول : (ربما يمرون بقفراء ، ويجيزون بمهمه صحراء ، فيقف بعضهم ثم تراه ينظر إلى أرض ذلك المكان وثراه ثم يقول ليس هذا الثرى من هذا الثرى ثم ينزل عن دابته ، ويأخذ من ذلك التراب ويشمه ، ثم يلتفت إلى جهاته الأربع ، فيقصد منها جانباً ويؤمه ، ثم لا يزال يسير بمن معه من الأعوان حتى يصلوا إلى مكان فيحفرون ويخرجون كمين الدفائن وما فى ذلك المدائن من المغلات والخزائن . وكذلك إذا وصلوا إلى عمائر . أو مروا على مقابر يتوجهون إلى الخبء وكأنهم وضعوه بأيديهم ... وربما يجيئون إلى مقام مر على ساكنه فيه أيام . ومضى عليه فيه شهور وأعوام ، وفيه شىء مطمور لم يكن لصاحبه وساكنه به شعور ، فبمجرد دخولهم اليه ينتج ذلك عليهم . ويطلعون عليه . وحين يطلع ساكنه على ذلك يأكل ندامة وحسرة يديه ... وكانوا يحملون البقر ويركبونها ، ويسرجون الحمر ويلجمونها .. ويطعمون الجمل لحم الكلب والحمل ، ويعاضون عن شعير الفرس بالقمح والأرز والدخن والزبيب والعدس وربما أعوزهم ذلك فى السفر فأطعموا دوابهم لحاء الشجر» (١) .

وكان عسكره يضم خليطاً من أهل الملل المختلفة ، ففيهم عبدة الأصنام من الترك ، وفيهم عبدة النار من الأعاجم . وفيهم الكهنة والسحرة (٢) .

ولم تكن هذه الاختلافات فى الملل والعقائد تؤثر شيئاً فى قدرة هذا الجيش على القتال . ذلك لأن النظام الصارم الذى كان يفرض على هؤلاء العسكر — فضلا عما جبلوا عليه وكتسبوه من الصفات — أن يكونوا جنوداً ممتازين ومحاربين أشداء . وكان المغولى إذا دعى للجندية والقتال لم يستطع التأخر لأنه يعلم أن عاقبة التأخر فى تأدية هذا الواجب كانت الصلب أو الذبح .

---

(١) عجائب المقدور : ص ٢٣٤

(٢) نفسه : ص ٢٣٧

وكان الجندى المغولى مستعداً دائماً للقتال مسرعاً دائماً لتلبية الأمر . ولم يكن العقاب يحل بالجندى المغولى المقصر وحده بل كان يشمل أهله ويسرى على قومه وعشيرته (١) . وهو عقاب وحشى رهيب . ولذلك كانت الطاعة العمياء أسلم الطرق للنجاة . ومن هنا برزت هذه الصفة فى المحارب المغولى .

وقد رتب الجندى المغولى حياته على الحرب والقتال . ومن الجنود المغول من ولد وبلغ وتزوج وأنجب وهو فى رحلة وسفر لم يستقر ولم يسكن الحضر (٢) .

وكان الجندى المغولى خشناً جلداً . إذا خرج للقتال حمل معه جرابه وفيه أيسر الزاد لنفسه . والعليقة لفرسه . وكان قادراً على الصوم الطويل راضياً إذا أفطر بما يسد الرمق . كما كان يكتفى من الثياب بما يستر العورة ولو كان رثا خلقاً(٣) .

ولم تكن الحرب صناعة الرجال وحدهم بل كانت المرأة المغولية تشارك فيها مشاركة فعالة . وكانت المرأة المغولية تحسن استخدام كافة الأسلحة من طعن بالرمح . وضرب بالسيف ، ورشق بالنبال . ولم يكن يمنعها من ذلك أقسى الظروف الطبيعية التى تنتاب المرأة . فإذا كانت إحداهن حاملا وحانت ساعة وضعها تنحت جانباً من الطريق ، ونزلت عن دابتها ، ووضعت حملها ثم لفته وحملته معها ، وركبت دابتها . وأسرعت تلحق بقومها (٤) .

* * *

(١) نفسه : ص ٢٤٣
(٢) نفسه : ص ٢٣٩
(٣) نفسه : ص ٢٤٣
(٤) عجائب المقدور : ص ٢٣٩

وبمجرد أن مات تيمور بدأ العثمانيون والجلايريون والتركمان فى استرداد ممتلكاتهم التى كان قد سلبها منهم تيمور . ومع أن خلفاءه سيطروا على شمال إيران لمدة قرن الا أنهم لم يستطيعوا مواجهة القوة الجديدة الناشئة ، قوة الصفويين .

وكانت المنازعات بين خلفاء تيمور سبباً فى القضاء على الدولة . وقد استطاع شاهرخ أن يقف فى وجه المطامع والمنازعات لمدة . وكان شاهرخ أعظم أبناء تيمور لنك واستطاع من هراة أن يحكم إيران وأواسط آسيا لمدة نصف قرن تقريباً . وربما ساعد شاهرخ وأكسبه خبرة بالحكم أنه قضى ثمانى سنوات فى عهد والده يشترك معه فى حكم ممالك خراسان وتوفى سنة ٨٥٠ هـ/ ١٤٤٦ م فى نيشابور .

وعندما قتل ألغ بيك سنة ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩ م استباح التركمان هراة ، واستباحت قبائل الأزبك (الشيبانيون) سمرقند (١) .

أما من جاء بعد ذلك من أمراء هذه الأسرة فقد كانوا يعيشون فى شجار حتى انتهى أمرهم ولم يستطع خلفاؤه أن يحافظوا على كيان المملكة أمام الصفويين فى إيران والشيبانيين فيما وراء النهر .

ويمكن أن نعتبر أن نهاية هذه الدولة اقترنت بنهاية عهد أبى سعيد ٨٥٥ – ٨٧٢ هـ/ ١٤٥٢ – ١٤٦٧ م . وكان لأبى سعيد هذا أحد عشر ولدا أشهرهم بابر الذى رحل إلى الهند ، وأسس هناك سلطنة مغولية إسلامية كان لها شأن عظيم فى تاريخ الاسلام بالهند .

وكما انتهت الدولة المغولية الأولى فى إيران وهى دولة الإيلخانيين بموت أبى سعيد فكذلك يمكن تأريخ نهاية دولة التيموريين بنهاية عهد أبى سعيد .

---

(١) سايكس : ص ٧٠

١٠ – الأتراك والحضارة الإيرانية :

اختلف رأى العلماء فى موقف الأتراك من الحضارة . وقسا فريق من هؤلاء العلماء عليهم . ومن هؤلاء جوستاف لوبون الذى يذكر ان عظمة الأتراك لا تتجلى فى غير الحرب ، وأنهم وإن كانوا قد استطاعوا أن ينشئوا دولا كبرى الا أنهم عجزوا عن خلق حضارة أو ابتكارها . ويذكر أن أقصى ما استطاعه هؤلاء الأتراك هو أن يستفيدوا من حضارة غيرهم كالعرب وحتى هذه الحضارة العربية تسرب اليها الضعف والانحطاط عندما أصبحت مقاليد الأمور فى قبضة هؤلاء الأتراك . وعندما انتصر السلطان سليم على المصريين وجعل من مصر ولاية عثمانية أسرعت العلوم والفنون إلى الانحطاط(١) ويقول جوستاف لوبون فى موضع آخر (لكن الترك وإن كانوا أهل حرب وقتال لم يكونوا أهلا ليصعدوا فى سلم الحضارة ولم يقدروا على الانتفاع بتراث العرب المغلوبين الثقافى فضلا عن إنمائه . قال العرب : لا ينبت العشب على أرض يطأها الترك . والحق أنه لم ينبت فسترى فى فصل آخر درجة الانحطاط التى هبطت اليها دولة العرب القديمة بين أيدى السادة الجدد» (٢) .

ويقف بروكلمان منهم نفس الموقف إذ يقول إن الأتراك قد ألحقوا بحضارة إيران والعراق أكبر الأذى . وجاء من بعدهم أنسباؤهم المغول أو التتار فقضوا على البقية الباقية من تلك الحضارة (٣) .

أما رأى نولدكه فقد عرض له بارتولد فى كتابه عن تاريخ الترك فى آسيا الوسطى . وذكر بارتولد ان نولدكه قد بالغ كثيراً حين وصف العنصر التركى بأنه عدو للحضارة . ويرى نولدكه أن استيلاء الترك على بلاد الدولة السامانية كان أفدح مصيبة حلت بتلك البلاد . ويبدو أن هذا الرأى كان مسيطر أعلى نولدكه إذ كرره فى كتابه عن الإسلام Der Islam

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٧٠٠ ترجمة عادل زعتير ط ثانية

(٢) نفس المصدر : ص ١٨٢

(٣) بروكلمان : الامبراطورية الإسلامية وانحلالها : ص ٢٥٣ الترجمة العربية بيروت ١٩٤٩

وقال إن سيطرة الترك على بلاد العالم الاسلامى بعد القضاء على الدولة السامانية الايرانية كان نكبة هائلة فى التاريخ .

ويدافع بارتولد عن الأتراك فى أكثر من موضع ويخالف نولدكه فى رأيه ، ويضرب على ذلك مثلا خوارزم فإنها لم تكن فى القرن الثالث عشر أى فى عهد الحكم التركى أقل حضارة عما كانت عليه فى القرنين العاشر والحادى عشر أى قبل الحكم التركى . ويعتبر بارتولد أن ازدياد انتشار المذهب المعتزلى فى خوارزم بعد غزو المغول — وهو المذهب الذى يقوم على إعمال الفكر والعقل — دليل على أن الحياة الفكرية والعقلية فى خوارزم لم تصب بالعقم خلال حكم الترك . وفى موضع آخر يذكر بارتولد أن تقدم الشعوب أو تأخرها لا يمكن أن ينسب لجنس بعينه أو لمعتقدات دينية أو لظروف بيئة طبيعية معينة . ولا يمكن — فى رأيه — أن تكون هذه العوامل سبباً فى حضارة شعب أو تأخره . ويعتبر بارتولد أن الاتصال بين الشعوب والأجناس ، وتبادل العلاقات من أكبر عوامل الرقى ، وأن العزلة من أكبر عوامل التأخر . وإذا كان الجنس الهندى الأوربى (١) قد تفوق على غيره من من الأجناس فما ذلك الا لأنه على علاقات أكبر بغيره من الأجناس . وتلعب التجارة هنا دوراً هاماً فى الموضوع . والذى يسيطر على التجارة وعلى تبادل السلع بين شعوب العالم يضمن لنفسه تفوقاً أكبر . ولو أن هذه الأقوام التى تنتسب إلى الجنس الهندى الأوربى عاشت فى عزلة عن العالم لظلت إلى اليوم متأخرة . وحينما كان المسلمون يسيطرون على طرق التجارة كان لهم التفوق على العالم المسيحى . ومهما تكن المزايا التى تتمتع بها أوربا من حيث موقعها الجغرافى ، وطبيعة بلادها فإنها لم تكن لتؤدى إلى تفوق أوربا ما لم تهتم أوربا بتنمية علاقاتها المدنية بالعالم . وخلاصة ما يراه بارتولد أن رقى الأمم لا يعود إلى الجنس أو الدين أو البيئة وانما يعود إلى علاقاتها بغيرها من الأمم . هذه العلاقات التى يلعب الاقتصاد فيها دوراً هاماً (٢) .

---

(١) المعروف أن هذا التعبير يطلق على وحدة لغوية معينة

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٧ ترجمة حمزه طاهر

ويبدو أن العلماء الذين نسبوا إلى الجنس التركى الوقوف فى وجه الحضارة أو القضاء عليها قد ظلموا هذا الجنس . ويبدو أيضاً أنهم تأثروا بالفظائع التى ارتكبها المغول فى غزواتهم على العالم الاسلامى ، تلك الغزوات التى قضوا فيها على كثير من معالم الحضارة بل ومعالم الحياة نفسها . ونسى هؤلاء العلماء أن الأتراك الذين فعلوا هذا كانوا يعيشون قبل ذلك فى مواطنهم فى عزلة تامة ، وأنهم فى ذلك الوقت عندما غزوا العالم الاسلامى كانوا يمارسون اتصالهم بالعالم الخارجى لأول مرة ؛ وأنهم لم يفهموا فى أول الأمر — وهم قبائل رحل — معنى لهذه الحضارة . بدليل أنهم بعد ذلك عندما اتسعت دائرة اتصالهم بالعالم الخارجى ، وازدادت صلاتهم بغيرهم من الأقوام الأخرى كالإيرانيين والعرب عرفوا معنى الحضارة وأسهموا بنصيب فى ازدهارها . وقد أثرت الحياة الإسلامية بمعتقداتها وآدابها العربية والفارسية تأثيراً كبيراً فيهم .

ولكن توضيح الأمر ينبغى أن نذكر موقف الأتراك من الحضارة الإسلامية . وهذا موضوع طويل يحتاج وحده إلى مؤلف ضخم . ويكفينا هنا فى هذا الفصل الختامى الموجز أن نشير إشارات سريعة إلى حالة الحضارة الاسلامية فى فروعها المختلفة فى ظل الحكم التركى فى إيران .

وأبرز موضوع يعنينا هنا من موضوعات الحضارة الإسلامية فى إيران هو الدين الاسلامى نفسه — إذ هو قوام تلك الحضارة — وموقف الحكم التركى منه .

انتشر الإسلام بين القراخانيين فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى نتيجة لسيطرة الدولة الإيرانية السامانية الإسلامية على أواسط آسيا . وفضلا عن هذه السيطرة السامانية وما فرضته على بلاد الأتراك من انتشار الإسلام والحضارة الإيرانية فقد كان هؤلاء البدو قبائل بعيدة عن التحضر ، ولم تكن تستغنى عن الاتصال بجيرانها الايرانيين المتحضرين لدواعى التجارة .

ويذكر بارتولد عن هؤلاء القراخانيين أنهم كونوا أول مملكة تركية

إسلامية وأنهم عندما أسلموا حسن إسلامهم وكانوا أشد حرصاً عليه وتمسكاً بشعائره من غيرهم من الحكام المسلمين فى غرب آسيا (١) .

وكانت الدولة الغزنية أولى الدول التركية التى حكمت إيران . ودور السلطان محمود فى نشر الاسلام وتوطيد دعائمه فى بلاد الهند مشهور فى التاريخ . وقد بلغت غزوات محمود فى بلاد الهند اثنتى عشرة غزوة بين سنوات ٣٩٢ – ٤١٥ هـ/ ١٠٠١ – ١٠٢٤ م . ويذكر ابن الأثير أن الدافع الذى دفع هذا السلطان لغزو الهند أول الأمر كان التقرب إلى الله والتكفير عما كان منه من قتال المسلمين (٢) . ولا شك فى أن محموداً بعد أن غزا الهند أول مرة أدرك ضعف تلك البلاد ودرجة ثرائها فأغراه هذا بمتابعة الفتح والغزو . وكان فى كل غزوة يعود محملا بالغنائم . ويتهمه ابن الأثير بأنه كان محباً للمال فيقول عنه : « لم يكن فيه ما يعاب الا أنه كان يتوصل إلى أخذ الأموال بكل طريق » ويستشهد على هذا بحادثة صغيرة مؤداها أن محموداً اتهم رجلا غنياً بأنه قرمطى ليتوصل إلى أخذ ماله . ولما افتدى الرجل نفسه بالمال برأه محمود من تلك التهمة (٣) . ولا أدرى كيف أجاز ابن الأثير اطلاق هذا الحكم العام على محمود الغزنى لحادثة فردية كهذه يحتمل أن تنهار وقائعها عند التمحيص الدقيق . وفى تاريخ محمود من الوقائع العامة المسلم بها تاريخياً ما يناقض هذه الدعوى . وأوضح مثل لهذا ما فعله عندما استولى على بيت أصنام الهنود الذى كان فيه معبودهم الأكبر «سومنات» فإنه عندما هم بتحطيم هذا الصنم فزع الهنود . وأسرعوا اليه يفتدون معبودهم بكل غال ونفيس لديهم ، وقدموا اليه مالا يحصى من الأموال والنفائس لكى يترك لهم معبودهم . وكانت هذه الأموال المعروضة من الضخامة بحيث أغرت أعوان محمود فنصحوه بأن يقبل العرض ويترك الصنم . وكان فى إمكانه أن يقبل ولكنه رفض وصمم على تحطيم الصنم . أفهذه

---

(١) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ٨٤

(٢) ابن الأثير : حوادث سنة ٣٩٢

(٣) نفسه : حوادث سنة ٤٢١

الحادثة أبلغ فى الدلالة على شخصية محمود أم تلك الحادثة الفردية الصغيرة التى رواها ابن الأثير وبنى عليها حكمه ؟!

وكان محمود يميل إلى دراسة الفقه . وتذكر بعض المصادر اسمه بين الفقهاء . وفى بعض المصادر أنه ألف كتاباً فى الفقه ؟(١) وإلى جانب الفقه كان ولوعاً بعلم الحديث . وكثيراً ما كان يعقد المجالس لسماع الأحاديث من الشيوخ كما كان يدعو العلماء من أتباع المذاهب المختلفة إلى مجلسه للمناقشة والمناظرة (٢) .

وقد جعلت انتصارات محمود فى غزواته الدينية فى بلاد الهند منه بطلا شعبياً تروى عنه القصص وتنظم فيه الأشعار . ويبدو الباعث الدينى واضحاً فى نظم الأشعار التى قيلت فى مدح السلطان .

* * *

وكان الأتراك السلاجقة هم أيضاً غيورين على الدين الإسلامى . وقد اتخذوا المذهب الحنفى مذهباً لهم كما كان يفعل السامانيون . وقد نشر هؤلاء السلاجقة راية الإسلام فى غرب آسيا وانتصروا فى صراعهم مع بيزنطة . وكان البيزنطيون قد انتهزوا فرصة الخلاف الذى وقع فى العالم الإسلامى بين السنة والشيعة والذى بلغ مداه فى عهد الدولة البويهية فاستولوا على بعض البلاد فى سوريا وبين النهرين . وعندما صار الأمر كله فى يد السلاجقة لم يسترد المسلمون ما فقدوه فحسب بل إنهم نشروا الإسلام فى العالم البيزنطى .

ومنذ أن سيطر السلاجقة على آسيا الصغرى أخذت تلك البلاد تتأثر بالحياة التركية . وكان المجتمع هناك مكوناً من عناصر أهمها عنصر الأتراك الحاكمين ، وعنصر الإيرانيين الذى كان منتشراً هناك ، ثم السكان الأصليون الإغريق . ولم يكن هناك خلاف بين المسيحية والإسلام . وكان المسيحيون

---

(١) شبلى النعمانى : شعر العجم : ١/٣٥ الترجمة الفارسية لفخر كيلانى

(٢) ابن خلكان : ٢/١١٠

والمسلمون يعيشون فى وفاق . وانتشرت الحضارة الإيرانية فى آسيا الصغرى باعتبارها الحضارة التى صادفها الأتراك السلاجقة فى رحلتهم من الشرق إلى الغرب ونقلوها معهم عندما انتقلوا إلى آسيا الصغرى .

ولا ينبغى أن ننسى دور السلاجقة فى كفاح الصليبيين . وكان لخلفاء هؤلاء السلاجقة — وهم الأتراك العثمانيون — دور كبير فى الفتوح التى قاموا بها فى أوربا ونشروا الاسلام .

ولا داعى هنا لتفصيل موقف السلاجقة من الإسلام وحمايته من الضالين والمضلين ، فقد أشرنا إلى هذا من قبل وبينا كيف كان وزيرهم نظام الملك يسعى جاهداً بتأييد من السلطان السلجوقى للقضاء على الفرق المفسدة التى تعمل للكيد للإسلام والنيل منه .

المهم أن ننظر الآن فى موقف التتار أو المغول من الإسلام باعتبارهم أشد فروع الأمة التركية إضراراً بالعالم الاسلامى وحضارته . وهم الذين نسبت وحشيتهم إلى الجنس التركى كله حتى اعتبره بعض المؤرخين والعلماء — كما مر من قبل — نقمة على الحضارة البشرية .

إذا بدأنا بزعيم هؤلاء المغول وجدنا أنه لم يتعرض لدين أحد . وكفل لأهل الملل على اختلافهم حريتهم الدينية . ولم يعتنق هو ديناً من الأديان(١) .

أما فى إيران نفسها حيث حكم هولاكو وذريته الذين يعرفون بالايلخانيين فإن الموقف تجاه الإسلام كان يختلف من ملك إلى آخر حتى عهد غازان حين استقر الأمر للإسلام .

فهولاكو مثلا ٦٥٤ — ٦٦٣ هـ / ١٢٥٦ — ١٢٦٥ م كانت زوجته الكبرى مسيحية من قبيلة قرايت الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية . وكان

---

(١) تذكر بعض المصادر أنه كان على دين البوذية (غزاوى ١/٢٥٢)

لهذا السبب يعطف على المسيحية وله علاقات طيبة مع البابا اسكندر الرابع الذى أرسل اليه فى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠ م يشجعه على اعتناق المسيحية .

وكان أباقاخان فى الحادية والثلاثين من عمره عندما تولى الحكم . وقد شجعته العناصر المسيحية وآزرته حتى تولى العرش . وتزوج من إحدى المسيحيات (ماريا ابنة ميشيل باليولوغوس) . ولهذا كانت صلته طيبة مع المسيحيين .-ويشير إلى هذا خطاب ادوارد الأول ملك انجلترا إلى آباقاخان . وفى هذا الخطاب إشارة غامضة إلى عمليات يراد القيام بها فى فلسطين . ولكن اباقاخان لم يستطع أن ينفذ شيئاً فقد اختفت آخر الإمارات الصليبية فى سوريا فى ذلك الوقت . كما أنه لم يستطع أن يقف فى وجه المماليك . وسرعان ما انتهى عهده بعد ذلك (١) . وكان اباقاخان على تفاهم تام مع البابوات وتبادل الرسائل مع أربعة منهم وهم كليمنت الرابع ، وجريجورى العاشر ، ويوحنا السادس والعشرون ، ونقولا الثالث . وقد حاول هؤلاء البابوات أن يدفعوه إلى اعتناق المسيحية . وقد اختلط فى هذه الرسائل الطابع الدينى بالطابع السياسى (٢) ولا شك فى أن المساعى المشتركة بينهما كان هدفها تدبير خطة سياسية دينية معاً للقضاء على الإسلام والمسلمين .

وجاء بعد أباقا أخوه الذى أراد أن يخدع المسلمين والمسيحيين معاً معاً فبينما كان اسمه الحقيقى نيقولا تراه يسمى نفسه عند ارتقائه العرش أحمد ولم يستطع نيقولا أو أحمد هذا أن يرضى الفريقين . ولم يطل عهده اذ عزل بعد فترة وجيزة وحل محله ابن اباقا الأكبر وهو أرغون ٦٨٣ — ٦٩٠هـ/ ١٢٨٤ — ١٢٩١ م .

وكان أرغون طرازاً جديداً ففى عهده ارتفع شأن اليهود بزعامة كبيرهم سعد الدولة الأبهرى . وأصله من أبهر كما يدل لقبه ولكنه عاش فى مدينة بغداد مدة حيث خالط العرب والترك وبرع فى عدد من اللغات . واشتغل

---

(١) سايكس : ص ٦٣
(٢) براون : ٣/١٨

بعد ذلك بمهنة الطب إلى أن استطاع أن ينتظم فى سلك أطباء أرغون (١) . وحكم ارغون إيران حوالى سبع سنوات سيطر فى خلالها وزيره اليهودى سعد الدولة . وينسب اليه المسلمون أنه هو الذى وضع كل الخطط التى كانت ترمى للقضاء على الإسلام (١) .

أما بيدو (٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م) فقد كان ميالا إلى المسيحية يفضلها على الإسلام وربما كان هذا سبباً من أسباب قتله .

أما غازان خان (٦٩٤ — ٧٠٣ هـ/ ١٢٩٥ — ١٣٠٤ م) فهو من الشخصيات البارزة حقاً فى تاريخ الإسلام . وكان إسلامه نصراً للدين فانه على أثر إسلامه دخلت القبائل المغولية فى الاسلام ، وجعل الإسلام دين الدولة الرسمى . ويقال إن الذى زين الاسلام لغازان الأمير نوروز وكان من كبار شخصيات المغول وحكم كثيراً من المقاطعات الايرانية لمدة تسع وثلاثين سنة فى عهد جنكيزخان وخلفائه . ويروى أنه عندما نشب القتال بين غازان وبايدو طلب نوروز منه أن ينذر لله أن يعتنق الإسلام إذا انتصر . وقد وفى غازان فعلا بهذا النذر ، ففى ٤ من شعبان سنة ٦٩٤ هـ/ ١٩ من يونيو ١٢٩٥ أعلن هو ومعه عشرة آلاف مغولى دخولهم فى الإسلام وبعد أن أسلم عهد إلى نوروز بإبادة كل معالم الكفر فى تبريز . وفى نوفمبر سنة ١٢٩٧ استخدم الأمراء المغول العمامة بدلا من لباس الرأس القومى الذى كانوا يستعملونه . وبدأ غازان يدخل على المجتمع المغولى تغييرات جديدة تكسبه الطابع الاسلامى . فغير النقوش على العملة بما يتفق مع العهد الجديد ، وأمر بهدم الكنائس المسيحية والمعابد البوذية فى إيران . ولم يقو رهبان الشامانية أو البوذية على تحدى المسلمين بعد ذلك ، وأخلت البيع والمعابد مكانها للمساجد (٢) . وخير كهنة المغول المقيمين فى إيران بين الإسلام أو الرحيل عن البلاد أو التعرض للقتل . وبسبب تعصبه للاسلام

---

(١) خواندمير : دستور الوزراء ص ٢٩٦

(٢) راجع ص ٦٥ من هذا البحث

(٣) براون : ٣/٤٤

دبر له أعداء الإسلام من أشراف المغول وزعمائهم مؤامرة لقتله انتهت بالفشل وبمقتلهم هم . ولكي يفرق بين أتباع كل دين أمر النصارى أن يشدوا الزنار فى أوساطهم واليهود أن يضعوا خرقة صفراء فى عمائمهم (١) .

وكان غازان خان شيعياً . وقد أبدى اهتمامه بالشيعة فى أكثر من مظهر إذ حفر قناة من نهر الفرات إلى قبر الامام على بالنجف كما أنه حول أراضى كربلاء القاحلة إلى أراض خصبة ، وبنى فى المدن الكبرى كثير من دور الضيافة لاقامة أبناء على . وسماها دور السيادات . وكان يسخو فى الانفاق عليهم من أموال الأوقاف ويكثر من التردد على قبر على والحسين (٢) .

أما الجايتو محمد خدابنده (٧١٣ — ٧١٦ هـ/ ١٣٠٤ — ١٣١٦ م) فكان يثق فى أحد الفقهاء وهو جمال الدين بن مطهر ، فزين له مذهب الرافضية ، وأفهمه أن أبا بكر وعمر انما كانا وزيرين لرسول الله ، وأن علياً هو الذى يرث الخلافة . وشبه له الأمر بما هو حادث بين الملوك الذين يتوارث أبناؤهم عنهم الملك ، وأن وزراءهم لا يحق لهم أن ينازعوهم الملك . وكان خدابنده قريب عهد بالإسلام فاقتنع بهذا الكلام ، وكتب إلى الأقاليم يحمل الناس على الرفض فأجابه بعضهم ورفض بعض آخر كأهل بغداد وشيراز وأصفهان . ولم يستطع أن يفرض الرفض على الناس فرجع عنه بعد ذلك (٣) وقد نقل بعض المؤرخين أن اسم السلطان خدابنده (عبد الله) . ولما تشيع وحاول أن يفرض التشيع على الناس سماه أهل السنة «خربنده» (عبد الحمار) تحقيراً له (٤) .

وفى عهد الجايتو خدابنده حاول بعض الأمراء أن يصرفوه عن الإسلام ، ويعيدوه إلى دين أجداده الأولين . ولكنهم لم يفلحوا . وربما كانت هذه المحاولة هى آخر مظهر من مظاهر الوثنية المغولية فى إيران .

---

(١) تاريخ العراق بين احتلالين : ٣٦٨/١

(٢) مصطفى طه بدر : مغول إيران بين المسيحية والاسلام ص ٣١

(٣) ابن بطوطة : ص ١٥٦

(٤) تاريخ العراق بين احتلالين : ٤٠٩/١

وبعد وفاة خدابنده تولى السلطان أبو سعيد بهادر خان (٧١٦ – ٧٣٦هـ/ ١٣٠٤ – ١٣١٦ م) . وفى أيام هذا السلطان كان قدوم ابن بطوطه إلى بلاد ايران فى أوائل عام ٧٢٣ هـ .

أما تيمور فلم يكن له فى الحقيقة من الإسلام سوى اسمه . وكان كما يقول ابن عربشاه معتقداً للقواعد الجنكيزخانية (قواعد الياسا) يعمل بها وينفذها مع ما فيها من مخالفة للشريعة الإسلامية . ولذلك فان بعض العلماء وأئمة الإسلام قد أفتوا بخروج تيمور على الشريعة وكفروه (١) . ومع هذا فقد فقد كان يواظب على سماع التواريخ وقصص الأنبياء عليهم السلام بالفارسية لجهله بالعربية (٢) . وكما كان عسكر تيمور يضم خليطاً من عبدة الأصنام والمجوس وغيرهم من أصحاب المعتقدات المختلفة فقد كان يضم كذلك عدداً من العباد الصلحاء والزهاد الأتقياء . ويتضح مما كتبه ابن عربشاه أن تيمور كان يحرص على اصطحاب هؤلاء العلماء والزهاد معه وأنه كان يصطنع الحيلة معهم ليغريهم بملازمة عسكره (٣) .

وفى عهد تيمور ظهرت الطريقة الصوفية المعروفة بالنقشبندية .

ومما يذكر لتيمور بالخير أنه قتل فضل الله التبريزى أحد المبتدعة وصاحب الحروفية . وكان قد ظهر فى أيامه وزعم مزاعم كثيرة تهدف إلى إفساد الدين . ودعا تيمور إلى بدعته فقتله . وأمر شاه رخ بعد ذلك بطردهم من البلاد قبل أن يستشرى فسادهم .

* * *

أما موقف الأتراك من بقية ألوان الحضارة كالعلم والأدب والفن فهذا ما نعرض له هنا مجرد عرض سريع لتكملة الخطوط الرئيسية اللازمة فى تحديد الصورة العامة .

وأول هؤلاء الأتراك الذى حكموا إيران الغزنيون . وكان السلطان

---

(١) عجائب المقدور : ص ٢٢٠
(٢) نفس المصدر والصفحة
(٣) نفس المصدر : ص ٢٤١

محمود الغزنى حريصاً أشد الحرص على رعاية العلم والأدب والفن فى مملكته . وكان يغرى العلماء والأدباء بالانتقال إلى بلاطه . وكان يرى أن بلاطه وهو أعظم البلاطات الموجودة فى ذلك العصر وأعلاها شأناً أحق بأن يجتمع فيه من العلماء والأدباء ما يفوق به غيره . ولا شك فى أن بعض الأمراء المحليين كانوا يستجيبون إلى محمود تملقاً وخوفاً منه فيوفدون إلى بلاطه من يرى إيفاده من علمائهم وأدبائهم . ولكننا لم نعرف أنه استخدم فى سبيل ذلك القوة . يحدثنا نظامى العروضى السمرقندى عن بلاط أبى العباس مأمون ملك خوارزم ومن اجتمع فيه من العلماء والفضلاء . ويذكر أن السلطان محموداً حين سمع باجتماع هؤلاء العلماء لدى البلاط المأمونى كتب يطلب إيفاد بعضهم اليه ليزدان بهم بلاطه . وقد قبل بعضهم بالفعل فورد على البلاط الغزنى أبو نصر العراق وكان من علماء الرياضيات ، وأبو الخير الخمار وكان ممن برعوا فى الطب ، وأبو ريحان البيرونى وهو من الشخصيات العلمية البارزة فى علم النجوم . بينما رفض ابن سينا وأبو سهل المسيحى من أهل الحكمة القدوم إلى بلاط السلطان محمود . وكان محمود يستطيع أن يتعقبهما ويجبرهما على ملازمة بلاطه ولكنه لم يفعل . وكان يعتبر أن إعراض ابن سينا خسارة كبيرة لبلاطه (١) . وانتهت رحلة ابن سيناء بعد خروجه من بلاط خوارزم إلى بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير حيث لقى الرعاية والترحيب هناك . أما المسيحى فقد لقى حتفه فى الصحراء أثناء هبوب عاصفة رملية .

وكان محمود نفسه شاعراً ، وقد نسبت اليه أشعار مختلفة فى الغزل والرثاء والبطولة . وتورد كتب التذاكر ما بقى له من هذه الأشعار . وقد التف حوله عدد كبير من الشعراء كان كبيرهم العنصرى الشاعر المعروف .

وكما فعل السلطان محمود فى بلاطه بغزنه من رعاية العلم والعلماء

---

(١) جهار مقاله : الحكاية الخامسة من المقالة الرابعة .

والأدباء كان الأمراء المحليون يتنافسون بدورهم فى اجتذاب أهل العلم والأدب . ومنهم فى نيشابور أبو المظفر نصر – أخو السلطان محمود – . وكان أبو المظفر هذا يهتم بأهل الأدب والعلم حتى اجتمع منهم فى بلاطه عدد كبير مدحوه حياته ورثوه فى مماته بالكثير من الأشعار (١) .

* * *

وأما فى عهد المغول فيلاحظ براون (٢) أنه على الرغم مما عانته البلاد من قتل العلماء ، وتخريب المكتبات ودور العلم الا أن العلم مع ذلك لم يقض عليه . وكانت بعض فروع العلم أحسن حظاً من بعضها الآخر . فبينما أهمل المغول الاهتمام بالدراسات الخاصة بالفلسفة أو العقيدة أو توجيه العناية إلى الشعر نراهم يهتمون ببعض فروع العلم الأخرى كالطب والتنجيم والتاريخ وكان للتاريخ مكانة ممتازة فى قلوبهم فقد كانوا يرون أن هذا الفرع من العلم هو الذى يحفظ أخبارهم ويخلد ذكرهم .

وكان تيمور – كما أشرنا من قبل – يكثر من الاستماع إلى التواريخ . وسير الملوك حتى حفظها من كثرة التكرار . ولذلك كان إذ أخطأ أحد أمامه فى بعض المعلومات التاريخية رده إلى الصواب بينما لم يكن يهتم بالشعراء . ومن المعروف عنه تخريبه قبر الفردوس صاحب الشاهنامه . وتنقل بعض المؤلفات أن تيمور قال على قبر الفردوس هذا البيت :

سر ازكور برادر وايران ببين
ز دست دليران توران زمين

. ومعنى هذا البيت : أخرج رأسك من القبر وأنظر إلى ايران وما يعانيه شعبها على يد أبطال التورانيين . وهذا البيت يصور نقمة التورانيين على الإيرانيين وشعور العداوة المتبادل بينهما . ولكن يبعد أن يكون تيمور

---

(١) العتبى : ١/٣٣٠

(٢) براون : ٣/١٦

هو صاحب هذا البيت فقد عرف عنه أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ومن المستبعد أيضاً أن يكون موهوباً فى الشعر دون أن تشير إلى ذلك المصادر .

على كل حال كانت المؤلفات التاريخية فى العهد المغولى تحتل مكان الصدارة . وفى الفصل الثانى من الجزء الثالث من كتاب براون عن تاريخ الفرس الأدبى (تاريخ أدبى لفارس) A litarary History of Persier تفصيل واف عن المصادر التاريخية التى ألفت فى عهد الايلخانيين . وكذلك فى البحث الذى كتبه أستاذنا المغفور له الدكتور ابراهيم أمين الشواربى ونشره فى مجلة كلية الآداب بالقاهرة المجلد السابع ١٩٤٤ وعنوانه «مصادر فارسية فى التاريخ الإسلامى» .

وهذا بيان موجز لأهم المصادر التاريخية التى ألفت فى هذا العهد :

تاريخ جهانكشا : لعطا ملك الجوينى . أتمه مؤلفه سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ وتمتد حوادث هذا الكتاب إلى سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ حين قضى هولاكو على الحشاشين . ويتحدث هذا الكتاب فى الجزء الأول منه عن تاريخ جنكيزخان وخلفائه حتى جغتاى . وفى الجزء الثانى عن ملوك خوارزم وعلى الأخص عن قطب الدين محمد وابنه جلال الدين . ويتحدث فى الجزء الثالث عن طائفة الاسماعيلية وزعيمها الحسن الصباح . وعلى هذا فالكتاب لا يعتبر تاريخاً عاماً بل تاريخاً خاصاً بجنكيزخان وأسلافه وخلفائه . وقد التحق عطا ملك جوينى بخدمة الديوان المغولى فى عهد أرغون .

تاريخ وصاف : ويعد تكملة لتاريخ جهانكشا . ولهذا يحسن ذكره بعده مع أنه فى الترتيب الزمنى متأخر عنه . ألفه أبو عبد الله بن فضل الله الشيرازى فى سنة ٧٢٨ هـ . واسمه بالكامل تجزية الأمصار وتزجية الأعصار وعرف اختصاراً باسم تاريخ وصاف . وهو خمسة أجزاء تتحدث عن سلاطين المغول حتى أيام السلطان أبى سعيد سنة ٧٢٨ هـ .

جامع التواريخ . ألفه رشيد الدين فضل الله فى سنة ٧١٠ هـ . وكان

طبيباً خاصاً لأباقاخان . وتولى الوزارة أيام غازان خان . وفى أيام السلطان أبى سعيد خدابنده ظل رشيد الدين يحتل أيضاً نفس المكانة المرموقة . ويتكون هذا الكتاب من :

الجزء الأول وفيه بابان : الأول عن تاريخ القبائل التركية والمغولية المختلفة . والثانى عن تاريخ جنكيزخان وأجداده وأحفاده حتى غازان خان .

الجزء الثانى وفية مقدمة عن آدم والانبياء والرسل ثم

الباب الأول : عن ملوك الفرس والأقدمين قبل الاسلام ويضم أربعة فصول .

الباب الثانى : عن تاريخ النبى محمد صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ومن بعدهم من خلفاء المسلمين أمويين وعباسيين حتى تحطيم الخلافة على يد المغول سنة ٦٥٦ ومن عاصرهم من الدول والسلاطين كسلاطين غزنة ، والسلاجقة الخوارزميين ، السلغريين أتابكة فارس ، الاسماعيلية ، الأتراك واليهود ، والفرنج وملوكهم والبابوات والهنود مع مقالة طويلة عن الديانة البوذية .

تاريخ كزيده : لحمد الله المستوفى القزوينى . وهو سليل أسرة عاشت فى قزوين . وكان جده أمين الدين نصر مستوفياً على العراق وكانت نهايته على يد المغول . وتولى أخوه زين الدين محمد الشئون المالية فى قزوين ، وأبهر ، وزنجان . وقد وصلنا من مؤلفات حمد الله هذا الثلاثة الآتية : تاريخ كزيده (مختار التاريخ) ، ظفر نامه (كتاب الظفر) ، نزهة القلوب والأول والثانى تاريخيان والثالث جغرافى .

ألف تاريخ كزيدة فى سنة ٧٣٠ هـ/ ١٣٣٠ م وأهداه لابن رشيد الدين وهو غياث الدين محمد الذى تولى الوزارة فى مايو سنة ١٣٢٨ ثم قتل بعد ذلك فى مايو سنة ١٣٣٦ م . ويذكر المؤلف المصادر التى رجع اليها فى تأليف كتابه ومن بينها سيرة ابن هشام ، قصص الأنبياء للثعالبى ، والرسالة القشيرية ، وتذكرة الأولياء لفريد الدين العطار وتجارب الأمم لابن مسكويه ،

وتاريخ ابن جرير الطبرى ، وتاريخ حمزة الأصفهان ، تاريخ الكامل لابن الأثير ، زبدة التواريخ لجمال الدين أبى القاسم الكاشانى ، نظام التواريخ للقاضى البيضاوى ، عيون التواريخ لأبى طالب البغدادى ، المعارف لابن قتيبه ، تاريخ جهانكشا لعطا ملك جوينى ، تاريخ العتبى ، سياست نامه .. الخ

ويتألف تاريخ كزيده من فاتحة ثم ستة أبواب يتضمن كل باب منها مجموعة فصول وخاتمة .

ظفر نامه : له أيضاً فى سنة ٧٣٥ هـ . وهو منظومة طويلة فى البحر المتقارب تتألف من ٧٥,٠٠٠ بيت . وتعد امتداداً لمنظومة الفردوسى الشاهنامة . وتبدأ ظفر نامة من عهد النبى صلى الله عليه وسلم إلى زمن المؤلف .

روضة الصفا : لميرخواند . وهو من المصادر التاريخية المهمة . والمعلومات عن مؤلف هذا الكتاب قليلة وان كنا نعرف أنه مات فى سنة ٩٠٣ هـ بالغاً من العمر ستا وستين سنة . اتصل المؤلف بالأمير عليشير نوائى فى هراه . وتتألف روضة الصفا من سبعة أجزاء :

الأول : فى بيان أول المخلوقات وذكر الأنبياء وملوك العجم .

الثانى : عن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين .

الثالث : فى ذكر الأئمة وخلفاء بنى أمية وبنى العباس .

الرابع : فى ذكر الدول الإسلامية التى نشأت فى فارس إلى عهد تيمور

الخامس : عن المغول الإيلخانيين .

السادس : فى تيمور وأعقابه إلى سنة ٨٧٣ هـ .

السابع : يتحدث عن السلطان حسين بايقرا المتوفى سنة ٩١٢ هـ أى بعد تسع سنوات من وفاة المؤلف مما يدل على أن شخصاً آخر قد كتب هذا الجزء . وترجع أهمية الجزءين الأخيرين من روضة الصفا إلى أن حوادثهما قد عاصرها المؤلف بنفسه .

حبيب السير فى أخبار أفراد البشر : (٩٣٠هـ) ومؤلفه غياث الدين ابن همام الدين المعروف بخواندمير المتوفى سنة ٩٤١ هـ . وهو حفيد ميرخوند صاحب روضة الصفا الذى كان جده لأمه . التحق المؤلف كجده أيضاً بخدمة الأمير عليشير نوائى الذى كلفه بتأليف كتابيه مآثر الملوك وخلاصة الأخبار . أما حبيب السير فقد أهداه إلى حبيب الله ساوجى وزير دورمش خان حاكم هراة . ومن هنا جاء اسم الكتاب حبيب السير . وكان المؤلف من معاصرى الدولتين التيمورية والصفوية . وخصص المؤلف للشاه اسماعيل الصفوى الجزء الرابع من المجلد الثالث .

دستور الوزراء : له أيضاً (٩١٤ هـ) وهو يضمن أحوال وزراء الإسلام حتى زمان المؤلف .

* * *

أما المؤلفات الأدبية التى ترجع إلى عصر المغول فكثيرة نشير منها إلى ما يأتى :

لباب الألباب : وهو من أقدم كتب التذاكر التى وصلتنا . ألفه عوفى سنة ٦١٨ هـ . وهو مجلدان الأول فى شرح أحوال الأمراء والسلاطين والوزراء والعلماء الذين شعروا بالفارسية ، والثانى فى أحوال وأشعار شعراء الفرس .

جوامع الحكايات : لعوفى أيضاً . انتهى من تأليفه سنة ٦٣٠ هـ وهو فى أربعة مجلدات . وقد جمع مادته من كثير من المصادر التى قرأها أو سمعها .

المعجم فى معايير أشعار العجم : ألفه شمس الدين محمد بن قيس الرازى فى سنة ٦٣٠ هـ .

أخلاق ناصرى : كتبه نصير الدين طوسى فى أصول الأخلاق والحكمة العملية . وقد ألفه باسم الملك ناصر الدين أبى الفتح عبد الرحيم بن أبى منصور محتشم قهستان من حكام عهد هولاكو .

كلستان : (٦٥٦هـ) : وهو من أمهات كتب الأدب المنثور . ألفه سعدى وكتبه فى صورة المقامات وقصد به النصيحة والحكمة والتوجيه الخلقى . وقد كتبه سعدى فى سن الخمسين كما يقول فى ديباجة الكتاب . ويتألف الكتاب من ديباجة وثمانية أبواب .

تذكرة الشعراء : (٨٩٢هـ) لدولتشاه بن علاء الدولة السمرقندى وفيه ترجمة لأكثر من مائة وخمسين من شعراء الفرس . انتهى من تأليفه سنة ٨٩٢ هـ .

بهارستان : (٨٩٢ هـ) تأليف مولانا نور الدين عبد الرحمن جامى . وهذا الكتاب على نسق كلستان سعدى . وفيه مجموعة من الحكايات ذات المغزى الخلقى . وقد ضم فيه مجموعة من الأشعار العربية والفارسية . ويمكن أن يقال إن بهارستان أحسن تقليد للكلستان .

ولجامى مجموعة أخرى من المؤلفات منها نقد النصوص فى شرح الفصوص وهو فى شرح وتفسير عقايد محيى الدين بن عربى مؤلف فصوص الحكم ومختصره نقش الفصوص . ومن مؤلفاته أيضاً نفحات الأنس وفيه شرح أحوال عدد كبير من الفضلاء والعلماء ومشايخ الصوفية . وأصل هذا الكتاب عربى من تأليف محمد بن حسين سلمى النيشابورى واسمه طبقات الصوفية . وقد أشار الأمير عليشير نوائى على جامى أن يترجمه إلى الفارسية ويكمله ويضيف إليه ترجمة العلماء حتى زمانه . ومن مؤلفاته أيضاً اللوايح ، اللوامع ، شواهد النبوة ، أشعة اللمعات ، أنوار سهيلى .

* * *

ومن العلماء والمتصوفة الذين اشتهروا فى العهد المغولى نصير الدين الطوسى (٥٩٧ — ٦٧٢) وزكريا القزوينى (٦٠٠ — ٦٨٢هـ) والقاضى البيضاوى (المتوفى ٦٨٥هـ) وقطب الدين الشيرازى (٦٣٤ — ٧١٠ هـ) والقاضى عضد الايجى (المتوفى ٧٥٦هـ) وقطب الدين الرازى (المتوفى ٧٦٦هـ)

* * *

أما الشعراء فكثيرون ، نشير منهم إلى :

كمال اسماعيل الأصفهانى (متوفى ٦٢٥ هـ) وقد شاهد فى أواخر أيامه بعض حوادث المغول الوحشية .

وجلال الدين مولوى بلخى (٦٠٤ — ٦٧٢) . وأشهر أعماله المثنوى الذى يتألف من ٢٦ ألف بيت . ويعد من أهم الآثار الأدبية فى التصوف .

وسعدى شيرازى . وهو من مواليد شيراز وسليل أسرة دينية . وقام سعدى بكثير من الأسفار واستقر فى النهاية بوطنه شيراز . وكان يتولى حكم فارس أبو بكر سعد بن زنكى . وقد نعم إقليم فارس ومدينة شيراز بحالة من الأمن والاستقرار بفضل الصلح الذى عقده أبو بكر مع المغول فجنب بلاده بذلك الويلات التى تعرضت لها بقية بلاد إيران على يد هؤلاء المغول المتوحشين . ويشير سعدى إلى الأموال التى كان يدفعها أتابكة فارس للمغول لاتقاء شرهم وإنقاذ بلادهم بقوله فى البوستان :

سكندر بديوار روئين وسنك
بكرد از جهان راه ياجوج تينك
ترا سد ياجوج كفر از زرست
نه روئين جو ديوار اسكندر ست

أى أنه إذا كان الاسكندر قد أقام سداً من النحاس والحجارة حول طريق ياجوج فان سدك الذى أقمته ضد ياجوج الكفر كان من ذهب ولم يكن من نحاس كسد الاسكندر . وهذا اشارة إلى الأموال التى كان يدفعها لهؤلاء المغول لصدهم عن اقليم فارس .

وكان سعدى من خاصة المقربين إلى ولى العهد سعد بن أبى بكر ، ومن اسمه أخذ تخلصه . وكان سعدى موضع رعاية الأب والابن معاً . ولهذا أهدى سعدى اليهما كتابه البوستان والكلستان .

همام التبريزى (متوفى ٧١٤ هـ) . وكان يعيش فى تبريز . وهو من أبرع شعراء الغزل فى القرن السابع الهجرى . وكان من المعجبين بسعدى . واليه يشير فى هذا البيت :

همام را سخن دلفریب وشیرین است
ولی چه سود که بیجاره نیست شیرازی

أی أن هماماً له من الشعر کل عذب وجذاب ولکن ما الفائدة ؟ إن هذا المسکین لیس شیرازیا ویبلغ دیوان عزله قریبا من عشرة آلاف بیت .

شیخ محمود شیشتری : (متوفی ۷۲۰) وهو من أهل شیشتر آذربیجان وعاش فی زمان الجایتو وأبی سعید . وکان یعد من کبار علماء ومتصوفة عصره . ومن آثاره مثنوی کلشن راز وهو فی حوالی ألف بیت .

أوحدی مراغی : (متوفی ۷۳۸) وینسب إلی مراغه حیث ولد وإن کان قضی أغلب حیاته فی أصفهان . وفی النهایة عاد إلی وطنه فی آذربیجان ولازم غیاث الدین محمد بن رشید الدین فضل الله الذی کان وزیر أبی سعید (۷۱٦ ــ ۷۳٦). وفی مراغة مات ودفن الشاعر . وبلغ دیوانه حوالی خمسة آلاف بیت تضم ألواناً مختلفة من الشعر کالقصائد والغزلیات والمقطعات وترجیع بند والرباعیات . ومن آثاره مثنوی باسم منطق العشاق . وأشهر آثاره المثنوی المعروف باسم جام جم .

خواجو کرمانی : (٦۷۹ ــ ۷۵۳) من أبناء کرمان وقد عرف بالشعر فی شبابه وبدأ أولا بمدح ملوك المظفریین . وجاء إلی شیراز فی أواخر أیامه واتصل بالشیخ أبی اسحق اینجو ومدحه . ولخواجو دیوان شعر وخمس منظومات علی غرار خمسة نظامی وهی :

۱ ــ های وهمایون	قصة عشق
۲ ــ کل ونوروز	محاکاة لخسردو شیرین نظامی
۳ ــ روضة الأنوار	منظومة خلقیة دینیة
٤ ــ کمال نامه	منظومة تصوفیة
٥ ــ گهر نامه	فی الأخلاق والتصوف

وهناك غير هؤلاء الشعراء ابن يمين (المتوفى ٨٦٩) وسلمان ساوجى (المتوفى ٧٧٨) .

وحافظ شيرازى : من شعراء العهد التيمورى متوفى سنة ٧٩١ هـ . وهو من شيراز . وكان أبوه قد هاجر اليها من أصفهان فى زمن أتابكة فارس . وكان لا يزال طفلا عندما توفى أبوه . ولم يصرفه كسب العيش عن الدراسة والتحصيل وحضور مجالس العلماء المشهورين فى ذلك الزمان . وعندما حفظ القرآن تخلص بلقب حافظ .

وفى طفولة حافظ كان يحكم اقليم فارس محمود شاه اينجو من قبل أبى سعيد بهادر . وعندما توفى بعث أبو سعيد الشيخ حسين حكم فارس ولكن الأهالى لم يحسنوا استقباله وثاروا عليه وولوا مكانه أبا اسحق أحد أبناء محمود شاه اينجو . وكان أبو اسحق هذا من أول من مدحهم حافظ لما أظهره نحوه من عطف ورعاية . ولكن أبا اسحق لم يطل عهده إذ سلبه السلطة واستولى على فارس الأمير مبارز الدين محمد بن المظفر حاكم يزد . وقد أساء مبارز الدين السيرة مع أهل فارس واستبد بالناس ومال إلى سفك الدماء والظلم حتى ثار عليه ابناه (شاه شجاع ومحمود) وعزلاه وقتلاه . وتولى الشاه شجاع حكم فارس وأحسن إلى الناس .

وبعد الشاه شجاع تولى ابنه زين العابدين ولكن عهده لم يطل إذ وقعت حملة تيمور على فارس ، وفر زين العابدين ، وترك حكم فارس إلى الأمير منصور بن أخرى شاه شجاع . وقد بذل الأمير منصور جهده فى تعمير فارس وصد هجمات تيمور وقد مدحه حافظ فى بعض أشعاره ولكنه هزم فى آخر الأمر وقتل على يد تيمور وانقرضت بمقتله سلسلة المظفريين سنة ٧٩٥ .

ويذكر دولتشاه أن مقابلة تمت بين تيمور حافظ بعد قتل الشاه منصور وفى هذه المقابلة لام تيمور الشاعر حافظ لأنه يريد أن يهب بسمرقند والبساطة محبوبته مدينة سمرقند وبخارى من أجل خالها (طابع الحسن) وذلك حيث يقول

أكر آن ترك شيرازى بدست آرد دل مارا

بخال هندويش بخشم سمرقند وبخارا (١) .

وهذه القصة غير صحيحة ، ولم يرد لها ذكر فى المؤلفات المعاصرة لتلك الأحداث التى أرخت لتيمور . وقد انفرد بذكرها دولتشاه وحده ، ومما يدل على زيفها أن دولتشاه يؤرخها فى سنة ٩٧٥ بينما كان حافظ قد مات قبل ذلك بأربع سنوات .

وأشهر آثار حافظ ديوانه الذى يقرب من أربعة آلاف بيت ، ويضم فنوناً من النظم كالغزل والقصائد والرباعيات والمقطعات وترجيع بند وتركيب بند وبعض المثنويات . ولكن الفن الغالب على ديوانه هو الغزل .

جامى : وينسب إلى ولاية جام بخراسان ومنها اتخذ تخلصه . وبعد أن قضى فى جام عدداً من سنى الطفولة اتجه إلى هراة حيث درس هناك . وفى هراة اتصل بسعد الدين كشغرى من زعماء الطريقة النقشبندية ، وأصبح واحداً من مريديه ، ثم صار هو زعيما للطريقة بعد وفاة سعد الدين . وارتبط تاريخ جامى بشخصيتين عظيمتين هما : السلطان حسين بايقرا الذى كان يتولى الحكم فى هراة ، ويهتم بالشعر والأدب . والأمير عليشير نوائى وزيره ، كان من علماء عصره وله تآليف بالفارسية والتركية .

ولجامى آثار منثورة ومنظومة . فمن المنظوم ديوان أشعاره . وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام : سمى القسم الأول : فاتحة الشباب ، والثانى وساطة العقد ، والثالثة خاتمة الحياة . وقد نظم سبعة مثنويات أخرى يحاكى فيها منظومات نظامى . وهذه المنظومات السبع هى :

سلسلة الذهب	منظومة دينية وخلقية
سلامان وأبسال	قصة قديمة تنطوى على أفكار تصوفية
تحفة الأحرار	منظومة دينية

يوسف وزليخا

ليلى ومجنون

خردنامه سكندرى

أما مؤلفاته النثرية فقد سبقت الاشارة إليها

* * *

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الفنون المختلفة وجدنا أن هذا الجانب من جوانب الحضارة قد رعاه الحكام الأتراك فى إيران .

فاذا بدأنا بالدولة الغزنية وجدنا أن فن العمارة قد نال فى عهدها رعاية كبيرة بسبب الثراء والترف الذى عاش فيه البلاط للانتصارات المتوالية والغنائم الكبيرة التى غنمتها جيوش السلطان فى بلاد الهند . ويحدثنا العتبى حديثاً طويلاً عن مسجد غزنه الجديد الذى بناه السلطان محمود . وكيف كان يغرى العمال الذين اشتركوا فى بنائه بالأجور والأموال طلباً للإجادة والإتقان ، وكيف نقل ما احتاجه البناء من الأخشاب من الهند والسند ، وكيف بالغ فى تجميل المسجد وتزيينه حتى أصبح تحفة فنية رائعة (١) وكانت غزنة أو غزنين عاصمة الدولة زينة المدائن فى عصرها .

وفى أقسى عهود الحكم التركى فى إيران وهى عهود المغول لم تمت الفنون المختلفة . وقد أشرنا فيما سبق إلى حرص هؤلاء المغول فى فتوحهم على سلامة الصناع وأصحاب الحرف لينتفعوا بهم فى أعمالهم الإنشائية . وقد أورد ابن عربشاه أسماء كثير من الفقهاء والعلماء والمحدثين والقراء والوعاظ والكتاب والمنجمين والنقاشين والفنانين والشطرنجيين الذين اتصلوا ببلاط تيمور .

وعرف عن تيمور أنه كان شديد العناية بتزويد وطنه وعاصمته سمرقند بكل ألوان الحضارة ومقوماتها . وقد أنشأ بظاهر سمرقند من القصور والبساتين ما جعلها من أجمل بلاد العالم الاسلامى وقتذاك .

---

(١) العتبى : ٢/٢٩١

وكما كان تيمور مولعاً بالحدائق فقد كان أيضاً مولعاً بالعمارة . بنى فى سمرقند مدرسة دينية كبيرة باسم زوجته بيبى خاتون . كذلك تعد مقبرته المعروفة باسم كورمير أى قبر الأمير من الأمثلة المعمارية الرائعة فى العهد التيمورى .

وكانت كوهرشد إحدى زوجات شاه رخ من المولعين بفن العمارة وقد أنشأت مسجد كوهر شاد المقام فى مشهد .

وترجع مكانة غازان فى التاريخ إلى الإصلاحات العظيمة التى قام بها كتنظيم الضرائب ، ونشر العدالة ، وإقامة المؤسسات العامة الدينية والثقافية . وكان غازان ولوعاً بفن العمارة كما كان يحسن عدداً من اللغات كالفارسية والعربية والصينية إلى جانب لغته الأم المغولية .

ويرجع إلى المغول الفضل فى أنهم نشروا بإيران الحرير الصينى وأتاحوا الفرصة للإيرانيين ليحاكوه وينتجوا أنواعاً جديدة منه لقيت رواجاً فى الأسواق الخارجية وعادت بالنفع على الإيرانيين .

وقد ظهر فى عهد المغول نوعان من الخط ، أولهما الخط المعروف باسم تعليق فى القرن السابع الهجرى ، وثانيهما الخط المعروف باسم نستعليق . وهذا الأخير ينسب اختراعه إلى أحد كتاب تيمور هو مير على التبريزى وابنه عبد الله . وقد تقدم فن الخط تقدماً عظيما فى عهد تيمور الذى شمل برعايته الخطاطين . وكان من مظاهر تقدم هذا الفن الاسلامى الجميل أن عدداً كبيراً من رجال الدولة كانوا من الخطاطين أمثال بدر الدين أحد وزراء تيمور ، وابراهيم ميرزا ، وبايسنقر ميرزا من أحفاد تيمور(١).

وازدهر فن التذهيب فى عهد المغول . وكان السلطان الجايتو يشجع أصحاب هذا الفن . وكان يعهد إلى الفنانين بتذهيب أعمال كثيرة . ويتضح

---

(١) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ص ٣٤

تقدم هذا الفن من تلك النسخ العديدة المذهبة من القرآن الكريم التى كانوا يقدمونها اليه (١) .

أما المنسوجات فقد بدأت تزدهر فى إيران من عصر السلاجقة الذين حملوا إلى ايران المنسوجات الصينية . ولا شك فى أن صناعة النسيج فى إيران قد تأثرت بالطابع الصينى بسبب هجرة القبائل التركية من الشرق واستقرارها فى إيران . وكان لصناعة النسيج فى العهد المغولى مراكز مزدهرة مثل هراة ونيشابور وتبريز وقم .

وكان فن التصوير فى عهد المغول فناً ايرانياً ممتازاً . وكان كتاب جامع التواريخ من أول المخطوطات الفارسية التى زينت بالصور . ونالت الشاهنامه اهتماماً عظيما من المصورين .

ولا ريب فى أن الإفاضة فى الحديث عن الفنون الإيرانية أمر لا تقتضيه هذا المقام .. ومن المناسب أن نقف عند هذا الحد لأن ماذكرناه كله من ألوان الحضارة فى ميادين الأدب والفن لم يكن مقصوداً لذاته ، ولا كان هدفاً للدراسة وانما كان كله مجرد عرض سريع للتدليل على أن الحكم التركى فى ايران لم يكن شراً كله لأنه لم يخل من حسنات .

ومن هذا نرى أن نولدكه وبروكلمان ولوبون فى موقفهم من العنصر التركى والحضارة قد أطلقوا أحكاماً عامة تختلف مع الحقيقة فى بعض التفاصيل .

---

(١) Legacy of Persia P. 133 by D. Barrett.
والترجمة العربية لأحمد عيسى فى تراث فارس ص ١٨١